

T
131A

March 8, 1969

NOTICE TO GRADUATE STUDENTS

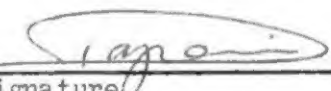
The Board of Graduate Studies in its meeting on November 1, 1968, decided that all graduate students must include the following " Thesis Release Form " to appear on a seperate page of each thesis:

" THESIS RELEASE FORM "
American University of Beirut

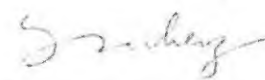
I, NAHIDA FADLI DABANI:

☒ authorize the American University of Beirut
to supply copies of my thesis to libraries or
individuals upon request.

☐ do not authorize the American University of
Beirut to supply copies of my thesis to
libraries or individuals.


Signature

24/2/1970
Date


Emile Rubeis
Assistant Registrar

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

Death in the Novels of Najib Mahfouz

الموت في نصوص نجيب محفوظ

by

Mrs. Nahida Fadli Dajani

(Name of Student)

Approved:

Prof. Muhammad Najm

M. Najm

Advisor

Prof. Mahmud Ghul

M.A. Ghul

Member of Committee

Prof. Halim Barakat

H. Barakat

Member of Committee

Member of Committee

Date of Thesis Presentation: 15/2/1970.

الموت في قصص نجيب محفوظ

رسالة استاذ في الآداب

قدمتها

ناهدة فضلي الدجاني

الدائرة العربية - الجامعة الأميركية

في بيروت

شباط - ١٩٧٠

مقدمة

يرتبط فن نجيب محفوظ بمجتمعه ، ارتباطا وثيقا ، فهو يلتزم في رواياته وقصصه ، عالميا
تضطرب فيه كائنات اجتماعية ، تنتمي الى قطاعات محددة المعالم ، في مجتمع له موقعه المرسوم
في الزمان والمكان .

وتمثل هذه الكائنات ، بمواقفها ، الإنسان المصري ، ابن الطبقة الوسطى ، الفاطن
القاهرة ، بعد الحرب العالمية الثانية^{الروضة} وحتى أيامنا .

يرافق نجيب محفوظ هذه الكائنات في صراعها من اجل الحياة ، مرافقة تفصيلية ، تكاد
تصل الى حد المسح الاجتماعي الشامل ، المنبثق عن معرفة محسوسة بطبيعة الشعب ، وعن
معايشة واعية لمشكلاته الحياتية ، وهمومه ، وتطلعاته . وفي رأينا ، ان هذه الميزة الكبيرة في
فن نجيب محفوظ ، ان هي الا حيلة بارعة ، للوصول الى اغوار النفس البشرية ، والكشف عن
اسرار الوجود . فالحلم الاجتماعي التي تعايشها كائناته ، تتصل اتصالا حميما بالقضايا
الميتافيزيقية الكبرى - التي هي في الواقع الشغل الشاغل لكل فنان عظيم - قضايا الخير
والشر ، والعدالة بمعناها الاشمع الاغم ، والحرية بمفهومها الكوني ، والمصير ، والفناء ، والمعرفة ،
والفساد ، والسعادة ، والحب ، والثورة .

على هذين الخطين : الخط الاجتماعي والخط الميتافيزيقي ، بنينا بحثنا هذا عن
" الموت في قصص نجيب محفوظ " ، فدونا كل حادثة موت ، وقعت في اعماله الروائية والقصصية ،
وحاولنا ان نعرف اسبابها ، وآثارها ، ونتائجها ، لنخلص الى مفهوم الفنان للموت .

أن نجيب محفوظ ، يحدد مفهومه للموت ، ببساطة باللغة حين يقول : " الموت هو النهاية .. هو الفناء " .. ولقد خرجت بدرس من تأملي للزمن والموت ، هو ان انظر اليهما بعين الإنسان الاجتماعي لا الفردى .. هما امام الفردى مصيبة .. لكنهما امام الاجتماعي وهم .. أو لا شيء .. ماذا يفعل الموت بالمجتمع البشرى ؟ لا شيء .. ففي اية لحظة ستجد مجتمعا يعج بالملايين . (١)

أن هذا المجتمع البشرى ، الذى يعج بالملايين ، يتأثر بالموت ، ويؤثر فيه ، يتأثر به نفسيا ، واجتماعيا ، واقتصاديا ، لا سيما اذا كان مجتمعا له خصائص المجتمع المصرى ، ففي الفترة التي استقى منها نجيب محفوظ ، مادة رواياته وقصصه ، مجتمع الطبقة الوسطى بانتماؤه الدينية والعائلية ، فهو شديد التعلق بأهداب الدين ، مؤمن كل الايمان بقضاء الله وقدره ، وهو شديد التعلق بالأسرة ، ينضوى تحت لواء معيلها ، بآلية يفرضها التمييز بين المرأة العاجزة والرجل الجبار ، وبين طبقة الاغنياء الحاكمين ، وطبقة الفقراء المحكومين . وهو مجتمع انتقالي ، يصارع التحكم الاجنبى ، والاقطاعية ، والرجعية ، والطبقية ، ليصل الى الاستقلال ، والحرية ، والاشتراكية ، وفي عملية الصراع هذه ، تسقط ضحايا .

والواقع كما يقول غالى شكرى " ان مرحلة الانتقال هذه ، هي مرحلة محلية وعالمية في آن واحد ، وهو انتقال فكرى وحضارى معا ، لذلك كانت شخوص نجيب محفوظ واحداثه ومواقفه مزدوجة الوجوه والرموز والاعطية ، لا تكتمل لك معرفة الوجه الا* بجانبه ، ولا تكتشف الرمز الا اذا فضضت علامتين ، ولا تكتشف الغطاء الا اذا خلعت الردائين . (٢)

-
- (١) شوشه ، فاروق - مع الأدباء ، نجيب محفوظ - مجلة الآداب - العدد السادس ، حزيران سنة ١٩٦٠ - ص ١٩ .
- (٢) شكرى ، غالى - نجيب محفوظ وازمة الانتماء الى الثورة - مجلة مواقف - العدد الخامس ، تموز سنة ١٩٦٩ - ص ١٦٦

أى ان شخوص نجيب محفوظ ، يحملون في حناياهم ، المشكلات الحياتية اليومية المنبثقة
عن واقع بعينه ، الى جانب المشكلات الانسانية المطلقة .

لذلك قسمنا بحثنا عن الموت في اعمال نجيب محفوظ ، الى ثلاثة فصول : -

١ - وقع الموت في نطاق الأسرة والعلاقات الخاصة : وعيننا ان نبين اثر الموت ، النفسي ،
والاجتماعي ، والاقتصادي ، في افراد الأسرة ، وفي المتأثرين مباشرة بهذا الموت ،
كالمنتفعين بحدوثه ، اما ماديا ، او نفسيا .

٢ - الموت في نطاق المجتمع والعلاقات العامة : وعيننا ان نبين اثر المجتمع في
الموت ، وكيف انه يدفع اليه ، اما بالقتل ، او الاغتيال ، او الاثتجار ، او حوادث
السيارات ، او التستر على المرض بداعي الجهل ، والخوف من الفضيحة ، والتشرد .

٣ - الأبعاد الميتافيزيقية للموت : وعيننا ان نبين اثر الصدفة ، والقدر ، في حدوث
الموت ، الى جانب الأستشهاد من اجل العدالة ، والحرية ، والمعرفة ، بمعناها -
الانساني المطلق .

واعتمدنا في الفصلين الأولين في الاكثر ، على اعمال نجيب محفوظ المرتبطة بحياة
الطبقة الوسطى المصرية من " خان الخليلي " حتى " الثلاثية " . واما في الفصل الثالث ،
فقد كانت قصص الواقعية الجديدة من " اولاد حارتنا " حتى " تحت المظلة " هي الاكثر اعتمادا .
وحاولنا ان نستخلص موقف الكاتب ، وآراءه ، من خلال سياق الأحداث ، وتركيب الشخصيات ،
ومثلها . واستنرنا بآراء النقاد المنشورة في المجلات الأدبية ، والفكرية ، وفي الكتب ، وبآراء
الكاتب نفسه ، من خلال مقابلات اجريت معه .

هذا ويعود الفضل في استكمال البحث عناصره الأولية ، الى توجيه الدكتور محمد يوسف

نجم ، المشرف على هذه الأطروحة .

الفصل الأول

وقع الموت في نطاق الأسرة والعلاقات الخاصة

- ١ - موت الأب
- ٢ - موت الأم
- ٣ - موت الأولاد
- ٤ - موت الحبيب
- ٥ - الانتفاع من الموت

١ - موت الأب :

- أ - وقوعه
- ب - تقاليد المجتمع
- ج - أثره النفسي
- د - أثره الاقتصادي والاجتماعي

أ - وقوعه :

يختلف وقع موت الأب عند أفراد العائلة ، باختلاف جنسهم ، ذكورا أو إناثا ، وأعمارهم ، كبارا أو صغارا ، أو بحكم انتسابهم إليه ، فالأبن ، غير البنت ، غير الزوجة ، غير الكنة .

حسن وحسنين ، الشابان الحدثان ، في رواية " بداية ونهاية " يرفضان فكرة موت والدهما الفجائي ، إلاّ انهما بعد أن يريا الميت بعينييهما ، يرتميان على فراشه ويغرقان في نسيج حار . " حسين يبكي ولسانه يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغيرة ، استنزالا للرحمة ، وحسنين يبكي في جوف من الخوف والذهول والانتكار . وقف حيال الموت محتجا نائرا ، ولكن في الوقت نفسه كان خائفا يائسا . ونفيسة الابنة الشابة ، أطلقت صواتا يهز حتى الأعماق ، وحين دخل أخوها الغرفة ، أمسكت وارتمت على كتفه واخفست وجهها في مسندها وراح جسمها ينتفض من البكاء " . (١)

وحسن ، الابن الأكبر ، ذو الحياة المضطربة المستهترّة ، جلس واجما حزيناً ، وإذا لم يكن حزنه كحزن أخوته ، " فمرجع هذا الى تقدمه عنهما في السن ، وإلى تمرسه

(١) بداية ونهاية - ص ٧ .

بالحياة حلوها ومرها ، ومرها على الأكثر ، الأمر الذى يُلطف عادة من مرارة الموت .
ومع هذا كان يشعر بحرج شديد ، جعله يتوجس خيفة من شقيقه ان يظنا بحزنه الظنون ،
لما كان يقع بينه وبين والديه من شقاق وملاحاة ، الا انه كان اعظم ادراكا لحقيقة
الكارثة التي وقعت ، من اخوته ، فكيف تنقصه دواعي الحزن والأسف ؟ واهم من هذا ،
ان الشعور برابطة الأسرة كان ولا يزال قويا في آل كامل بفضل الأم قبل كل شيء . (١)

أما الزوجة المفجوعة ، فقد كفت عن الصوات حين دخل ولداها الحجرة ، لأنها
ارادت ان تتركهما ينفسان عن صدرهما ، فتماسكت واقفة في جلبابها الأسود وقد
احمرت عيناها وانتفخ خذاها وانفها . وحين انتصف الليل ، كانت قد روت قصة
الوفاة للمرة العشرين ، في ذلك اليم الحزين . (٢)

واخت الزوجة ، التي اتت بشباب ريفيه ، هرولت الى الداخل وهي تصرخ : يا
خراب بيتك يا اختي . (٣)

أما كمال عبد الجواد ، الابن الكهل ، في رواية " السكريه " ، فقد تسمرت قدماه
وراء شبك السرير ، وانعقد لسانه ، وتحجرت عيناه ولم يجد شيئا يقوله او شيئا يفعل له ،
وعانى شعورا قاهرا بالعجز المطلق ، واليأس المطلق ، والتفاهة المطلقة ، وأدرك ان كنه
ساعة الموت الأخيرة ، سيبقى سرا الى الأبد ، وان وصفه بالآلم ، او الفزع ، او الغيبوبة ،
رجم بالغيب ، ولكنه على كل حال لا ينبغي ان تطول ، انها اجل واخطر ممن ان
تبتذل . (٤)

(١) بداية ونهاية - ص ١١

(٢) - - - ص ١٥

(٣) - - - ص ١١

(٤) السكريه - ص ٢٦

بينما صرخت اخته عائشة ، الأرملة الثكلى ، " يا ابي .. يا نعيمة .. يا عثمان . " (١)

أما الأخت الثانية ، خديجة ، القوية الشخصية ، فانها حين بلغت نبأ وفاة والدها ،
قلب البيت الحي من كثرة البكاء . (٢)

بينما مالت الزوجة على اذن زوجها الميت ، وتشهدت بصوت مسموع ، وكررت ذلك ، ثم طلبت
من اولادها ان يخرجوا من الحجرة ، لتقم بواجبها الاخير نحو زوجها . (٣)

الاولاد كلهم بكوا ، كمال وياسين الضخم الجثة المزواج ، فتطلع الاحفاد الى الرجلين
الباكيتين في حزن ، ووجع ، وشي من الدهش .

أما ابراهيم شوكت - الصهر زوج البنت - وهو من الاغنياء ، فان اول ما يتبادر الى
ذهنه ، هو ان الجنائز يجب ان تكون جديرة بمقامه . وكذلك رضوان ، الحفيد الوصولي ، الذي
يقترح اقامة سرادق العزاء في ميدان بيت القاضي ، لأن الشارع امام البيت ضيق ، خاصة لأنه
سيوم السرادق وزرا وشيوخ ونواب . (٤)

وأما في رواية " السراب " فلموت الأب وجه آخر ، ذلك ان الأب كان ثريا ، سكيرا ،
بخيلا ، وحين تلقى كامل روبة نبأ وفاة والده هاتفا من اخيه ، تملكته في البدء دهشة ،
ثم ما لبثت دهشته ان استحالت خوفا ، لأن الموت يخيفه دائما . ولما افاق من وقع الدهشة ،
استشعر نساءم ارتياح عميق تهفو على نفسه . ترى متى مات وكيف مات ؟ ألا ما اغرب الموت !!
ان الموت لا يتخلى عما له من فداحة المأساة ، حتى في حال رجل كأبي عاش جل عميره

(١) السكيرة - ص ٢٦٦

(٢) - - ص ٢٧٣

(٣) - - ص ٢٦٦

(٤) - - ص ٢٦٨

عيشة الأموات ، بعيدا عن الدنيا والناس ، وطرح على نفسي هذا السؤال : من عسى يحزن لموت أبي ؟ أخي مدحت ؟ אחتي راضية ؟ بدا لي انه سيغادر الدنيا غير مودع بحزن أو بأس ، وبدا لي ذاك مأساة افزع من مأساة الموت نفسها . أليس مستنكرا ان يحيا انسان في هذه الدنيا اكثر من سبعين عاما ، ثم لا يترك وراءه رائسا ؟ وجدت عند ذاك عطفًا وحزنًا ، وانها لعاطفة غريبة لم تختلج له في صدرى من قبل ، ولعلها كانت وليدة الارتياح ، لا الاشى ، لانه في مثل حالتي ، قد تجود النفس بالحزن لتدارى سرورها ، او لتعبر عن هذا السرور بطريق ملتو ، ولعلها عاتفة صادقة انصحت عن نفسها ، بعد ان ذهبت بموته العوائق التي كانت تعاقبها . (١)

وتصارعت في نفسه المشاعر ، لم يستطع ان يقام موجة رقيقة من الارتياح والسرور لكونه سيرث ، على ان شعوره الديني العميق ، احتج احتجاجا صارخا ، وبث في حناياه الخوف والقلق ، فتعوذ بالله من الشيطان الرجيم . (٢)

هكذا كان وقع موت الأب المورث البعيد عن اولاده ، المتنازل عن حقه في رعاية ابنه للجد ، مقابل الا يتكلف عليه مليا واحدا . ان كامل رؤبه نفسه ، الذى داخله الفرح لموت أبيه ، يصاب بالهلع لموت جده ، فلقد كان جناح العطف الذى اظله ، فنعم في ظله بالعيش الرغيد والحياة الرهيفة الطيبة ، وتصرخ ابنته - امام كامل - صرخة مدوية ، وتولول في وجع " ابي . . ابي " فهي اشد الأهل فجيعة وحزنا ، لأنها لم تفارقه طوال عمرها ، اللهم الا ثلاثة اشهر قضتها على مضض ، في بيت زوجها .

(١) السراب - ص ١٢٠

(٢) - - ص ١٢٣

ب - تقاليد الأُجتماعية :

للموت ، ككل مظهر من مظاهر الحياة الأُجتماعية ، تقاليد خاصة ، ولا تقل تقاليد — شأننا عن الأُفراح ، والأعراس ، والأعياد ، وتوثر الألبقية والعلاقات العامة ، والجوار ، فسي هذه المظاهر .

حسنين في رواية " بدايه ونهايه " ، كان يعد اخفاق الجنازة كالموت نفسه ، غضبا لأبيه الذى يحبه ، ولنفسه هو ، كان يمه عدد المشيعين بتدريما تهمه نوعيتهم ، وحين قلب عينيه فيمن تجمع من المشيعين ، لم يرا احدا يملأ العين الا حارم الكرم فريد افندى محمد ، أما زوج خالته ، فكان في حكم العمال ، وليس عم حابر سليمان البقال ، بخير منه ، والحلاق ادهى وأمر ، ونفر غيرهم غيابهم اشرف من حضورهم ، عندئذ انقبض صدره وغشيه كدر عميق ، ولم ترد اليه الروح ويتخلص من قلقه ، الا لما جاءت سيارة فخمة تنطق بالعز والحاء ووقفت على بعد يسير من البيت ، وغادرها ساع ففتح بابها ، ثم نزل منها رجل ينس مظهره على الألقاب والرتب ، فهرع اليه الأخوة بأدب ، واندس بينهم فريد افندى محمد ، ليحظى باستقبال الشخصية الممتازة ، التي ينبغي ان يقدرها — كموظف — اكثر من سواء . ولم يجدوا ما يقدمونه له الا كرسيًا مسن الخبز ان على قارة الطريق ، فشعروا بحرج غير قليل .

انهم وهم غارقون في الحزن ، لم ينسوا ان يظهروا بغيرهم المهرم الحقيقي ، خصوصا ، حسنين ، الذى كان حريصا على الا تقع عين على القبر ، حفظا لكرامة الأسرة ، في حين ود لو يرى كل المشيعين ذلك المفتش الذى انقذه من قلقه .

كان يحس هذه الأحاسيس ، في اللحظات الحاسمة المفجعة ، حين خرج النعش من البيت ، وعلا الصوت من الشرفة والنوافذ ، وحتى حين بلغوا المسجد ، وظهر بعض المشيعين استعدادا لمرافقة النعش حتى مستقره الأخير ، كان كل همه ان لا يذهب احد مهما كلف الأمر " لا مقبرة ولا يحزنون " لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا ؟ سيبقى هذا القبر المغفور في العراء رمزا لضياعنا المخجل في هذه المدينة الكبيرة . - (١)

ذلك لانه من تقاليد الموت ان تبني العائلات مقابر لها ، يتوارثونها جيلا بعد جيل . - (٢)

ومن تقاليد الموت ، ان يقدم الجيران لأهل الميت فطير القرافة ، على ان تهدي العائلة ما يماثلها ، عقب العودة من القرافة ، إلا اذا كانت العائلة تعاني فقرا شديدا لفناء المعيل ، عندئذ ، ترد الهدية في وقتها . - (٣)

ولا تختلف رغبة عائلة السيد احمد عبد الحواد في رواية " السكينة " ، عن رغبة عائلة كامل في رواية " بداية ونهاية " ، في وجوب اقامة جنازة جديرة بمقام الميت ، وان كانت هذه العائلة تستلجم ان تحقق رغبتها ، أولا ، لأنها تنتمي الى طبقة التجار ، وتلك كانت تنتمي لطبقة الموظفين الصغار ، ثم ، لأن الميت خلف اولادا واحفادا ، وباتت عائلته كـبـيـره بأصهارها الاغنيان .

ابراهيم شوكت ، يهتف منذ علم بوفاة حميه
- " يجب ان تكون الجنازة جديرة بمقامه " .

(١) بداية ونهاية - ص ١٤ - ١٦

(٢) - - - ص ١٦

(٣) - - - ص ٤٦

ويجيئ به الابن الأكبر ياسين

- هذا اقل ما يجب .

أما الحفيد رضوان ، فيقترح إقامة سرادق العزاء في ميدان بيت القاضي ، لأن الشارع امام البيت ضيق لا يتسع للسرادق المناسب ، مع ان العادة جرت بأن يقام سرادق العزاء امام بيت المتوفي . (١)

ويوافقون لعلمهم انه سيؤم السرادق وزراء وشيوخ ونواب .
ولأنهم لن يتمكنوا من نشر النعي في جرائد الصباح ، يؤجلون الجنازة الى العصر ،
لتمكن جرائد المساء ، التي تصدر حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ، من نشره .
وكانت الجنازة كما رسموا ، وكان اصدقاء الحفيد عبد المنعم اكثر عددا . أما اصدقاء
الحفيد رضوان فكانوا اعلى مقاما ، ولفت نفر منهم الأنظار بشخصياتهم المعروفة لقراء الجرائد
والمجلات . وكان رضوان بهم مزهوا ، حتى كاد يغطي زهوه على حزنه . وشيع اهل الحي " جبار
العمر " حتى الذين لم يصلهم به سبب من اسباب التعارف الشخصي . فلم تكد الجنازة تخلو
الا من اصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه الى الدار الآخرة . (٢)

ومن تقاليد الموت ، أن تخلى حجرة الميت من أثاثها القديم شررا لا تهجرو وتستوحش ،
فتتحول بتغيير أثاثها الى استعمال آخر . وتوزع المخلقات العزيزة ، يبدأ الأبناء باختيار ما
يرغبون في اقتنائه من اثرا بيهم الراحل ، ثم تختار الزوجة ، وما تبقى ، يوزع على الفقراء الذين
سيدعون للفقيء بالرحمة في مقره الأخير .

(١) السيرة - ص ٢٦٨

(٢) - - ص ٢٧٠

والتقليد الواضح عند هذه الأسرة ، التي كان يمثل الزوج فيها السيد المطلق ، وتمثل الزوجة الظل الأمين ، هو انشغال الأسرة بكاملها في الأعداد للقرافه وتجهيز الرحمة .
فزيارة القرافه من اوجب الواجبات . وقد اصبح القبر يجمعهم جميعا كما كان يجمعهم مجلس القهوة في الزمان الخالي . وتزوج خديجة - الابنة الكبرى - حتى ينال منها الأغنياء ، ثم تؤمر بالسكوت ناديا لاستماع تلاوة القرآن . (١)

وفي رواية " السراب " ، تظهر الرغبة في جنازة كبيرة ، الا انها تظل رغبة ولا تتحقق ، لانه لم يكن للميت - برغم ثرائه - معارف ، ولم يكن للعم اصدقاء في القاهرة . فلم يزد عدد المشيعين على عشرين ، مما دعا العم لأن يقول متأثرا : " انه سيحيي ليلة المأم في بيته بالفيوم . . (٢)

ومع ان اولاد الميت عاشوا بعيدين عنه بعد طلاق امهم ، فان ابنته الوحيدة ، راضيه ، عملت بتقاليد الموت ، فصاحت ساعة خروج النعش من البيت .

ومن تقاليد الموت ، أن يجتمع آل الميت الأقربون في الليلة الأولى ببيته ، وقد عملت هذه العائلة بهذا التقليد ، الا ان حديثها كان عن الوراثة . بدأ العم العملي بالتحدث عن الاجراءات الواجبة لأثبات الوراثة ، واقترح ان يقدمهم الى صديق له في وزارة الأوقاف ، ليسر لهم قبرا مرتباتهم الشهرية ، ثم اتفقوا على ان يبيعوا بيت ابيهم الكبير ، ويتقاسموا ثمنه .

وبرغم حقد الأم على زوجها المتوفي ، فانها أصرت على تلقين ولدها الشاب ، تقليدا من تقاليد الموت ، وهو الدعوة للميت بالرحمة " اياك وان تفرح لموت احد . لا تذكر اباك من الآن فصاعدا الا دعوت له بالرحمة ، فما احب لك ان تسر لموت انسان ممما كان غذا الانسان . (٣)

(١) السكوت - ص ٢٧١-٢٧٥

(٢) - ص ١٢٢

(٣) السراب - ص ١٢٥

وتحدثنا رواية " السراب " ، عن تقاليد موت جد كامل " الأميرالاي عبدالله بك حسن " الذي توفي فجأة في القهوة بين اصحابه ، واحضره اصحابه الى البيت ، وسحوه على فراش الموت ، واقبلوا عليه يقبلون جبينه واحدا في اثر آخر ، وعزوا ابنته ، وخرجوا من الحجرة صامتين ، وتطوع احدهم بابلاغ وزارة الحربية على ان تشيع الجنازة صباحا .

وكما هو متبع في حالات الموت عامة ، ابلغ الأهل وحضروا كلهم ، " ولما حم الوداع امتلأت الشرفة بالباكيات واطلقت المدافع تحية لجدته وحمل نعشه على مدفع سارت بين يديه فرقة من الجيش " . (١)

ج - الأثر النفسي :

يشير موت الأب في النفوس ، مختلف المشاعر ، حسب مكانته وموقعه في العائلة ، فمن تشكيك في العدالة الإلهية ، إلى شعور بالمهانة ، إلى إحساس بالضياع والفراغ والوحشة ، إلى ارتياح مشوب بالقلق .

ولما كانت كل العائلات التي يكتب عنها نجيب محفوظ ، عائلات مسلمة مؤمنة ، تنتمي إلى شريحة في المجتمع يلغى الدين على كيانها النفسي والروحي ، ويسير حياتها الاجتماعية بوحى من تقاليد ، فإنه من المسلم به ، أن تتقبل الموت كحقيقة لا تقبل جدلاً .

" فالموت حق " " وقضاء الله " . إلا أننا نجد بعض شخصيات هذا الفنان ، تقف متشككة في العدالة الإلهية أمام الموت . وينبشق شكها في البدء ، من وضعها الاجتماعي الذي يتأتى عن الموت ، وهذا الموقف ، كما يعتقد الأستاذ إدوار خراط ، " هو الشغل الشاغل لكل فنان عالم ، فالفنان يلجأ إلى الهمم الاجتماعية التي تتصل على الفور اتصالاً حميماً بالهمم الميتافيزيقية الكبرى ، همم الخير والشر ، والعدالة بمعناها الأشمل الأعم ، العدالة الكونية ان شئت ، همم المصير والفناء ، والمعرفة والفساد والسعادة والمحبة " . (١)

حسن في " بداية ونهاية " يهدف وقد انقطع المورد — لماذا اخذ والدنا ؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب أمثالنا من الضحايا (٢)

ويجيب صوت أخيه المؤمن : " ألا ترى أن الله إذا كان مسئولاً عن موت والدنا ، فليس مسئولاً بحال عن قلة المعاش الذي تركه " . (٣)

(١) خراط ، إدوار — عالم نجيب محفوظ — مجلة المجلة — العدد ٧٣ ، يناير سنة ١٩٦٣ —

ص ١٨

(٢) بداية ونهاية — ص ٢٢

(٣) — — — ص ٣٢

ولم تكن قلة المعاش، المهاجر الذي استبد بالعائلة، بل ان الموقف الصارم الذي اتخذته الأم في تحديد المسئوليات، ورسم خطة العيش الجديدة، وانغافاً حوال الحزن والجديّة على البيت، قد زاد من توتر النفوس الشابّة، وافتقادها لجوعائلي مريح .

"يبدوان" الحياة لم تعد تطاق، ولولا المرحم والدنا ما عرفنا المرح :

— ليتنا ما عرفناه قط، ليتنا ما عرفنا التدلل ابدا، اذن لهانت علينا الحياة

الجديدة المقضي علينا بها . ليس الغراق شرما في الموت . ان الغراق حزن المطمئن . متاعبنا تتلاحق بحيث لا تدع لنا وقتا للتفكير في الحزن، لشد ما نتغير ونتدهور، ولكن ينبغي أن نصبر أو في الاقل ان نتظاهر بالصبر . أكبر جريمة في نظري ان نضاعف بحزننا شقاء آئنا . (١)

وفي سبيل التخفيف من شقاء الأم، قهر الشابان نفسيهما، وتنازلا عن أكثر شيء،

يحبانه : الاشتراك في نادي كرة القدم، وهما من خيرة اللاعبين . وقبلًا بعد صورة غضب، ان تعمل اختبما خياطة .

"وأيقنا ان خسارتهما بفقد ابئهما لا تعوّض ابدا . (٢)

آما الأم، فكانت تحرم على نفسها البكاء، امام ابنائها، خشية ان تعاودهم حدة الحزن . لم يكن لهم من احد يعتمد عليه سواها، فوجب ان تظهر بمظهر الرحولة . ولو وجد هذا الشخص للآلت بالدموع كسائر النساء، ولكن لم يكن لها محيد عن التصبر والتجلد . فضلا عن هذا كله، فلم تواتها فرصة للتنفيس عن حزنهما، بما جعلها من همم العيش وأثقاله، ووجدت نفسها في الغالب مضارة الى تناسي احزان القلب، لتناضل ما يتهدد اسرتها من الضراء " يحز نفسي نفسي الا اجد فراغا للحزن عليك يا سيدى وفقيدى، ولكن ما الحيلة؟؟ حتى الحزن نفسه محرم على امثالنا من الفقراء . (٣)

(١) بداية ونهاية — ص ٣٧

(٢) — — — ص ٣٨

(٣) — — — ص ٤٤

ولحق نفسه - البنت الصبية - شعور بالخزي والهوان والضعف ، لأنه بموت أبيها ، فرض عليها ان تعمل خياطه ، فشعرت بأنها تهوى من عل ، وانها امست فتاة اخرى . ليس بين الكرامة والضعف الا كلمة ، كانت فتاة محترمه فانقلبت خياطه " ان حزني عليه يتضاعف يوما بعد يوم لا للضر الذي مننا بعده فحسب ، ولكن لأنّ هذا الضر نزل بمن يحبهم ويحب لهم الخير . اني آلم لا لآلمه ، لا بد انه يتألم لنا ، لشدة ما كان يحبني . كأنه يحدث ما يرصدني من شقاء . لله ما الطفلة واعذبه ، لم يكن مثله احد في الرجال . مات . . مات . . لن انس ما حييت ايامه الى صدره وهو ملقى على الكنبه ، ابي يستغيث ولا مغيث . لتندك الجبال على الارض . حياة بغيضه مفاجئة لا خير فيها . . . وحيدة ، وحيدة ، وحيدة في يأسى والي ، ثلاثة وعشرون عاما ! ما ابشع هذا . لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا ، فكيف يأتي اليوم أو غدا ؟ لا فائدة سوف اظل هكذا ما حييت . (١)

وبلغ شعور نفسه بالمهانة واليأس اثر يتمها حدا جعلها تهتف " اني ميتة كآبسي ، وهو في باب النصر وانا في شبرا . (١)

أما شعور كمال عبد الجواد باليتم ، فكان من نوع آخر ، وبالرغم من انه كان كهلا ، ولا حاجة به لمال أبيه ، او رعايته ، الا انه احس بالفراغ . " فقد كان الأب - حتى بعد انزوائه - يملأ هذه الحياة ، فلن يكون غريبا اذا وجد غدا البيت غير البيت الذي عيده ، والحياة غير الحياة التي ألفها ، بل عليه منذ اللحظة ان يعد نفسه لدور جديد . (٢)

أما الزوجة امينة ، فهي التي هدّتها الترميل بعد الشك ، فقد عاشت حياتها عبادة مـليعة لسيد عـا . هي سيدة مؤمنة بقضاء الله ، وحريصه ، كأم حسن في رواية " بدايه ونهاية " .

(١) بداية ونهاية - ص ٤٩

(٢) السكّريه - ص ٢٦٦

على الآ تبيكي او تحزن امام اولادها ، لتشجعهم على النسيان ، فلا ينال منهم الحزن أى منال .
ولكنها ما ان تخلص الى نفسها حتى تبكي الى ان تحف دموعها ، ذلك انها اصبحت تحس
بفراغ كبير في حياتها ، " لم يعد لي شأن في هذه الدنيا ولم يعد لي عمل ، وكل ساعة من
ساعات يومي مرتبطة بذكرى سيدي " . (١)

وانزوت امينة في حجرتها ، وانقطعت عن تعاطي أى عمل من اعمال البيت ، سوى تجهيز الرحمة
وزيارة القرافة . وانزلت صلتها بالمستقبل ، والآ فيما يتعلق بالدعوات الصالحات لابنائها
بان يمتنعهم بطول العمر ، ويقرأعنيهم بأفراح الحياة .

أما بالنسبة لعائشة ، ابنتها الأرملة الشكلى ، التي فقدت زوجها واولادها وهي فسي
عزالشباب ، فقد كان موت الوالد استمرارا لحالتها البكائية ، بل ان " موته ، قد عاج حزنها ،
فهي تبكي اباها ، وابنتها ، وابنيها ، وزوجها ، وهي تعيش مع الموتى في صحوها ونومها ،
تحلم بانها رأت اباها قابضا على ساعد نعيمة بيد ، وعلى ساعد محمد بيد ، حاملا عثمان
على كتفه وقال لها انه بخير ، وانهم بخير . فسألت عن سر الانفاذة التي نورت لها في السما
ثم توارت الى الأبد ، فتجلت في عينيه نظرة عتاب ولم ينبس .

والحق ان عائشة بعد فقد ها اولادها وزوجها ، انقلبت الى انسانة تهوى التحدث
عن المصائب والغرائب ، مفرطة في التدخين وشرب القهوة ، " كأننا كانت تعتر بدرجتها الممتازة
في دنيا الشقاء " . (٢)

في حين يبدو كامل رؤبه ، الذي عاش حياته جباناً غير واثق من نفسه وعاجزاً عن تحقيق
غاية من غاياته ، مسروراً برغم قلقه ورهيبته من الموت ، تصطرع في نفسه المشاعر والتأملات ،

(١) السكريه - ص ٢٢٢

(٢) - - ص ٢٢٣

"أتكون الثروة المنتظرة وسيلتي للسعادة المرموقة ،أم تكون أداة جديدة من أدوات القسدر التي يستعملها في السخرية من المخلوقات الضعيفة ،لقد سخر من فقرى وعجزى ،وانه لقادر على ان يسخر من ثرائى وقوتى ،ليربىنى انى على الحالين مقضى على بالحسرة والتعاسة". (١)

ان الثروة التي هبطت عليه بعد وفاة ابيه ،لم تمنحه الراحة النفسية ،وان مثته بأنه على الاقل سيتمكن من ان ينافس أى انسان ،يفكر فى خبطة فتاة احلامه ،بل انه اعتبر حالته بعد الغنى ،حالة جنون " ولكن مسنى جنون لم يكن لي به عهد ،جنون محب لا يقعه الفقر ،جنون من تبدو له السعادة ممكنه ". (٢)

أما الحالة النفسية التي اعترضته بعد موت جده المعيل ،فقد كانت مزيجا من الخوف والتشاؤم . ألمه ان يجد نفسه مسئولا عن غيره ،وهو الذى ألف ان توكل مسئوليته بغيره . تجهم له وجه الدنيا ،وخارت عزيمته ،وامتلأت نفسه تشاؤما ،حتى توقع شرا وراء كل خلوة يخطوها ،وخشي ان تستغنى عنه الحكومة كموظف ،وخشي ان يصادفه حادث فسي الطريق ،يقضى عليه بعاهة تقعه عن السعي من اجل الحياة .

نموذج للأسان الاثكالى الجبان الذى يبحث دائما عن معيل يمد به المال ،حتى لو اتى هذا المال نتيجة لموت ابيه . . . " وتمنى لو يقدر ان يقتل اياه " . (٣)

أما الأم الجزعه لوفاة والدها ،الحاقدة على مطلقها ،الشاعرة بأنها ستصبح حملا ثقيل على ولدها ،فتظل منسجمة مع نفسها ومع موروثها الدينى ،وهي تنهى ولدها عن بناء آماله فى الحياة ،على موت انسان " لا تبين آمالك فى الحياة على موت انسان . الأعمار بيد الله " . (٤)

-
- | | | | |
|-----|--------|---|-------|
| (١) | السراب | - | ص ١٧٣ |
| (٢) | - | - | ص ١٧٧ |
| (٣) | - | - | ص ١٣٤ |
| (٤) | - | - | ص ١٣٣ |

د - اثره الاقتصادى والاجتماعى :

يسبرز اثر موت المعيل اقتصاديا واجتماعيا ، في رواية " بداية ونهايه " ، بروزا واضحا ، فبموته انقطع المورد ، كان موظفا ولم يخلف شيئا الا معاشه وتدره خمسة جنيهات لورثته : المكونين من ام ، واربعة اولاد .

الأم القوية الشخصية المدبرة ، تتولى زمام الامور ، وتخطط سياسة لعيشة شديدة التقبیر . " ولا ملیم مصروف للأولاد " ، يحرم حسين وحسنين من اشتراك نادى الكره ، من السينما ، والروايات . حتى الاكل يؤمّر ان يتناولاه من الغداء المدرسي ، رغم ما يلحق الاكليس من حتى الشبع في المدرسة ، من غمزر .

ويؤمّر حسن - الأخ الأكبر - ان يجد لنفسه عملا ، فلا مجال لالتعمامه في البيت ، لا سيما وانه عاطل عن العمل ، ومن يوم ترك المدرسة وهو لا يثبت في عمل معين . أما نفسه ، فلتعمل خياطه ، ولتالما خاطت المجارات محبة ومجاملة ، فلتتقاسر على تعبها مكافأة .

وبرغم معارضة الأخوة وشعورهم بالمهانة من عمل اختتم خياطه ، فقد فرضت الأم على نفسه ان تقبل " لست احب لأحد منكم المهانة ولكن للضرورة احكام ولا حيلة لي " . (١) ولم تعسف نفسها من مواقف الذل ، فقد كان عليها ان تسعى وراء همومها الجديدة ، ذهبت الى وزارة المعارف تلاحق صرف معاش زوجها ، ولما علمت ان الأحرار الروتينية ، تؤخر الصرف عدة شهور ، لجأت الى وسالة احمد بك يسرى ، المفتش الكبير ، الذى كان صديقا لزوجها . وحضر الجنازة . . . وعنده اكتشفت ان صداقة الغني للفقير ، لا يمكن ان تكون صداقة الند للند

"ولعله كان صديقا من اصدقاء الدرجة الثالثة ، كان يحبه ويقربه ويود سمره وفنه ، دون ان يعده ندا او صديقا كسائر البكوات والباشوات . (١)

أما صداقة الند المند ، فقد ظهرت عند جيرانهم الذين كانوا بمستواهم ، ييم كان الأب موظفا ، اذ تعاطف هؤلاء معهم في محنتهم ، بطريقة تبقي على كرامتهم ، فكانت الزوجة ، أول زبونة للخياطة عند نفيسه ، وكان الزوج ، أول من عرض على حسنين وحسين ان يدرسا ولده بعد الدوام المدرسي ، مقابل اجر .

الفقر الذي دهم العائلة بموت معيها ، اضطررها الى التنازل عن سكناها ، الى سكن ضيق ، شقة ارضيه بمستوى الفناء الترابي ، محرومة من الشمس والهواء ، لا شرفة لها ، ونوافذ عسا مطلية على علفه حانية تكاد تبدو منها رؤوس الحمار . ثم اضطررها الفقر الى بيع الاثاث ، بدءا بالبيع بفراش الأب ، وانتهى بمعظم اثاث الشقة ، ولم يبق فيها الا ما كان لاستعماله حاجة ملحة .

والفقر ، هو الذي خرج بنفيسه الى الشارع لابتغاء الحاجات من البقال بعد طرد الخادم ، لحاجتهم الى أجره ، وهو الذي اضطرها للعمل في البيوت كخياله ، وكان لهذا الخروج ، اثر قوى على مشاعرها التي افتقدت بموت الأب ، القلب الذي يحبها ، ويعطف عليها ، ويبادلها المودة ، والتي آلت الى تصرفات اودت بحياتها .

ولم يكن الحب محرما على نفيسه وحدها ، بل انه كان محرما ايضا على جميع افراد العائلة ، فحين احب حسنين ابنة الجيران ، الذين مدوا لهم يد المساعدة ورغب في خالبتها ، كان موقف امه شديد القساوة " لك قلب تحسد عليه فانه يستلعي رغم فجيعتنا وتعاستنا ان يعشق ،

وان يستعين بنا جميعا في سبيل سعادته ، والحق اني ذهلت حين حدثني فريد افندي عن آمالك الواسعه ، وهيامك العجيب ، ولكنني حدثته بدوري عن كفاحنا وتعاشنا ، حدثته عن اثاثنا الذي نبيعه قايعة قايعة لنحصل على الضروري من القوت ، وعن شقاء اختك التي تمتلئ الخياطة وتقطع النهار بين هذا البيت وذاك ، ثم صارحته بأن احدا من ابنائي لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المنهارة . (١)

ام قاسية ، غنيفة في الحد من تطلعات اسرتها ، وطلباتها ، ورغباتها . وقد دفعت ثمن هذه القسوة ، التي تجللت بها في سبيل اسرتها . اذ انهد حيلها وهرمت في عامين ، كما لم تهتم خلال نصف قرن من الزمان ، فنحلت ، وهزلت ، حتى استحالت جلدا وعظاما ، كانت تعمل النهار كله ، تطبخ ، وتغسل ، وتكنس ، وتمسح ، وترتق ، وترسو ، وترعى ابنيها خاصة ، وتحثما على العمل وتكبح من نزواتها ، وتحول بينهما وبين الاشتراك في الحياة السياسية ، خوفا على حياتهما بعد مقتل الطلاب في المظاهرات من جهة ، ولجهلها التام بالسياسة ، واستغراق الأسرة مشاغلها .

ونجحت في ابعادهما عن الاشتراك الفعلي في المظاهرات ، الا انهما لم تقدر ان تمنعهما من التفكير ، والتأمل ، وابداء الرأي ، فواللهما محتل ، والشعب يناضل للاستقلال ، والشباب يسقطون شهداء لتحقيق الاستقلال ، ثم انهما يعتقدان ان حالتها الاجتماعية متأثرة بالوضع السياسي ، أي بالاحتلال . لو لم يكن الاحتلال ، لما تركت اسرتنا بعد موت أبي بلا معين . (٢)

الا ان الأم ، التي هي نموذج - كما يقول محمود حشمت عبد الظاهر - للام المصرية الجاهله غير الواعيه بحقيقة المشكلة وجذورها ، لا تعلم ان مشكلة اسرتها جزء من المشكلة العامة ،

(١) بداية ونهايه - ص ٩٦

(٢) - - - - - ص ١٢٦

لذلك لم تنع ما قاله حسنين عن وضع الأسرة في ظل الاحتلال ، وهي منذ البدء لا تحفل بالاحاديث العامة التي تساق اليها احيانا ، كل ما يعنيه ان تصل بابنيها حسين وحسنيين الى بر الأمان وان تأوى الأسرة منهما الى ركن ركين . (١) لذلك فان اول يوم بهييج منذ عامين كئيبين ، كان يوم حصول حسين على البكالوريا . ففيه طابت النفوس ولهجت الألسن بالشكر لله . وتكرس حسين ضحية جديدة للعائلة بعد نفسه ، فلا بد ان يعمل ، ويكبح رغبته في اتمام تعليمه العالي . ينبغي ان يضحي احدهما ويرضى بالتوظيف الآن ، وهذا هو واجبي انا ، الأخ الأكبر وصاحب البكالوريا ، اني ادرك الحال على حقيقتها ، واعلم انه من القسوة الشريرة ان افكر في تكملة تعليمي ، فلأرض بحظي ، ولنندع الله جميعا ان يوفقنا الى ما نريد . (٢)

ولم تنف تضحية حسين عند قوله بالوظيفة بعيدا عن بيته في ليلنا ، وانما كان عليه ان يكبح جماح رغبته في الزواج ، بعد ان عثر على الفتاة المناسبة ، واضطرت في نفسها قوتان : مشاعره ، وواجبه نحو أسرته ، وانتصر الواجب .

واذا كان الواجب قد انتصر عند حسين ، فان التطلعات البقية ، والمطامح ، والرغبة في تغيير الواقع المخجل ، كانت دائما تنتصر عند حسنين ، ولم يكن يمه من تكون ضحيته ، اخيه نفسه ، أو اخاه حسن ، الذي احترف البلادة ، والذي اعتر حسنين حياته فضيحة يحب التستر عليها ، أو اخاه حسين الموظف التعيس في ليلنا ، أو ابنة الجيران التي احبها ومناهما بالزواج .

(١) عبد الظاهر ، محمود - النهاية في بداية ونهاية - مجلة الآداب - العدد ١١ ، تشرين

ثاني سنة ١٩٦٠ - ص ٤٤ .

(٢) بداية ونهاية - ص ١٢٩ .

وكان نصيب حسن من الفقر الذي ألمّ بالعائلة بعد موت الوالد ، عو ترك البيت ، والتسكع في الحانات ، ومرافقة المومسات ، والمهرجين ، والمجرمين ، والمقامرين ، عمل مطربا في الحانات ، وراعيا للمومسات ، وقتوة ، ومهربا ، لكنه برغم انتهاجه هذه الحياة لم ينس عائلته ، وثلّ يمد لها يد المساعدة ، فكان يوافيها بين الحين والحين بفخذ خروف ، واليه لحا اخواه ، برغم فجيعتهم بواقعه ، طلبا للمعونة المادية : حسين ، عندما احتاج لمصاريف السفر بعد تعيينه كاتباً في مدرسة طنطا ، وحسين ، عندما قبل تلميذا بالمدرسة الحربية .

وانتهى المطاف بحسن الى أن أصبح طريد العدالة ، هاربا من وجه البوليس .^(١) في " الثلاثية " ، تبدأ آثار الموت الاجتماعية تظهر ، منذ مرور السيد احمد عبـد الجواد ، فبعد سقوطه بنوبة ضغط ، وهو يمارس فسقه في بيت العالمة ، تفرض عليه حياة قاسية : ينقطع عن السهر ، والشرب ، والسر ، ويتبع نظاما قاسيا ، وباشتداد المرض عليه ينقلب في علاقته مع اولاده ، من أب متسلط متحبر ، الى صديق لليف يتقبل المناقشة ، ويقبل بزيارة ابنه الكبير له ، وعودته للمبت ، بعد ان تركه اثر زواجه من خطيبة اخيه الشهيد فهمي ويلاقي العائد صفحا من زوج ابيه ، اكراما لمرض الوالد .^(٢)

ويضطره احساسه باقتراب اجله ، الى ان يبيع دكانه ، وكان بيع الدكان حدثا هاما في حياة الأسرة ، ليس من الناحية الاقتصادية ، فالمال المدخر متوفر ، وانما لأن ذلك كان يعني ، ان يلائم السيد بيته ملازمة تامة ، بانتظار ان يوافيه الموت . ولما كان السيد مسلما مؤمنا ، برغم حياة الليل الفاسقة التي عاشها ، فانه لم تكن له امنية في ايامه الاخيرة ، سوى حسن الختام . " اني اسأل الله اذا حتم القضاء ان يكرمني بالموت ، أما الرقاد اعواما بلا حراك " . اللهم رحمتك .^(٣)

(١) بداية ونهاية - ص ٣٥٥

(٢) قصر الشوق - ص ٤٤٣

(٣) - - - - - ص ٤٥١

ومن أكثر المظاهر الاجتماعية وضوحا ، هو انقلاب الآتية في حياة الزوجين ،
فبعدما كان محرما على الزوجة ان تغادر البيت ليلا او نهارا ، بينما يقضي عونها في الدكان ،
وليله في السهر والسمر ، اصبحت هي التي لا تمكث في البيت ، تقضي نهارها تجول في القاهرة
من مسجد الى مسجد ، وصار هو جليس المشربه :

- " ما شاء الله ، من طلعة الصبح يا وليه ؟؟

- زرت سيدتك ، وزرت سيدك ودعوت لك وللجميع .

- ايصح ان تركيني وحدى كل هذا الوقت ؟؟

- انت اذنت لي يا سيدى ، ما احوجنا الى الدعاء ، توسلت الى سيدى ان يرد اليك

صحتك حتى تروح وتغدو كما تشاء ، كما دعوت لعائشة وللجميع . " (١)

آن السيد ، الذى عاش والأصدقاء حواليه ، يملأون حياته انسا ولبوا وجمعا ، قد امسى
وهو على فراش المرض وحيدا ، كأنه لم يعرف من الناس احدا ، لا زائر ولا عائد ، كمال ابنه ، يجالسه
خطفا كالغليظ ، وعائشة ابنته ، منصرفة عنه الى احزانها بوفاة زوجها وأولادها ، حتى مناحاة
الرحمن افتقدتها حين حيل بينه وبين الصلاة .

عذا قبل الدوت ، واما بعده ، فتعود الأم الى ملازمة بيتها ، وتنقطع عن زيارة المساجد ،
ولا تخرج الا لزيارة القبر الذى سكنه ولدها الشهيد قبل أبيه ، والذى اعتبرته منذ ذلك الحين ،
حجرة من البيت ، ولكنه في اطراف الحي . حتى عرس حفيدها الذى تم بعد سنة واربعه
شهور من وفاة زوجها ، لا تحضره ، لا هي ولا ابنتها عائشة " انا لا اشهد الا المآثم " (٢)

ويستمر باقي الأولاد في حياتهم العادية .

(١) السكبره - ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

(٢) - - ص ٣٢٩

وفي رواية " السراب " يظهر الأثر الاقتصادي والاجتماعي بتناقضه ، فحين مات الجد المعيل وانقطع معاشه ، عبط مستوى معيشة العائلة ، ترك كامل رؤبه ووالدته بيتها الى بيت اصغر ، واستغنيا عن الخدم بكثير من الكمد والحيا ، حتى ان الأم اضطرت ان تكذب وهي تورد سبب الاستغناء حفظا لكرامتها " آثرت الكذب على الاعتراف بالقر " (١) وعلمت هي ، التي لم تعمل ابدا ، في خدمة البيت ، برغم بلوغها منتصف الحلقة السادسة من العمر .

وأما كامل ، فقد اصبح قانطرا من نيل حبيبته ، بعد زوجه تحت وقر الفقر ، ولكي يهرب من واقعه المرير ، لجأ الى الخمر ، واصبح الحوذي الذي يأخذه الى الحانة الرخيصة ، مشـمـيره في الدنيا ، بعد امه .

وقد كان موقفام كامل في " السراب " ، كموقفام حسن في " بداية ونهاية " ، كلتاهما عارضت زواج الأولاد في حالة الفقر ، لشعورهما بالحاجة وعدم الاستقرار .

ويختلف الأثر الاقتصادي والاجتماعي في حالة وفاة الأب المورث ، فبعد حصول كامل على الثروة ، انتقل الى مسكن لائق ، وأعاد الخدم الى البيت ، واقدم على الزواج من فتاة ، فتحقق بذلك امل حياته .

٢ - موت الأم :

أثره النفسي والاجتماعي :

لم يحصل ان مات ام في اعمال نجيب محفوظ وتركت اولادا صغارا ، فأحدث موتها أزمة اجتماعية ، او خلف عقدا نفسية ، كذلك التي يخلقها اليتيم المبكر ، الا فسي رواية " اللص والكلاب " . وكل الأمهات فيما عدا ام سعيد مهران . متن وأولاد هن صبايا أو شباب ، وخلفن بموتهن ، آثارا نفسية ، واجتماعية ، مختلفة باختلاف سيرهن ، ونهـج حياتهن ، وتركتهن .

تمرضام سعيد مهران ، ابن بواب عمارة الطلبة الذي حل " واه مكان ابيه عقب موته ، فنهض بالمسئولية في سن مبكرة ، فياخذها الى المستشفى وهي في حالة نزيف ، ويهرع الى الطبيب الشيركي يسعفها بالدم . يزدرية الطبيب ، ويتفحصه بعينين زجاجيتين مستكرا . فيغضب سعيد غضبة رجل برغم حداثة سنه ، ويصبح محتجا لاعنا ، ويرمي بمقعد الى الأرض ، فيحدث دويا ، وتتطاير قشرة مسنده . ويطرد واهه من المستشفى ، وبعد شهر من الحادث تموت امه في قصر العيني ، وتظل اثناء احتضارها قابضة على يده ، وتأبى ان تحول عنه عينيها .

في ذلك الشهر بين النزيف والموت ، سرق سعيد اول مرة في حياته . ووجد من رؤوف علوان ، طالب الحقوق آنذاك ، تشجيعا " لا تخف ، الحق اني اعتبر هذه السرقة عملا مشروعا " (١) وكانت تلك انطلاقته نحو حياة الاجرام .

(١) اللص والكلاب - ص ١١٤

في رواية " بين القصرين " تمثل ام ياسين ، المرأة المزواج ، التي تملأ سيرتها ولدها ،
خجلاً وغضباً ، فينقطع عن زيارتها ، إلا أنه يذهب اليها وهي على فراش الموت ، بدافع الواجب
وحده ، " ما من قوة كانت تستطيع ان تعيده اليها .. إلا الموت .. الموت " .

وفي حضرة الموت ، تحاول الأم تبرير هفواتها المؤلمة امامه ، وتشهد الله ان قلبها كان
دائماً مفعماً بالآيمان . وتبلغه ان خوفها من رفضه ان يزورها ، كان اكثر من خوفها من الموت
نفسه . وتتمنى ان تسمع من ولدها كلمة حب وعفوعن الماضي ، فيليي الولد اليها وهو متشبث
بعاطفته الصافية التي عقد العزم على التثبيت بها من بادئ الأمر ، فقد اعادته حالة امه وهي
على فراش الموت ، الى طفولته ، كأنه يلقي ام طفولته التي احبها قبل ان توارى عنها قلبه
الأم .

لقد محا الموت من قلبه ، كل حنق ، وكل طمع بالميراث ، وودع أمه بقلب ابن ، رغم
احساسه بالحرج من الحنازة ، التي ستجمع اقدم الأزواج واحدتهم ، ولن يكون في وسعه ان يطرد هم
من الجنازة ، فتلاحقه الفضيحة حتى اللحظة الأخيرة .

ولم يبك في جنازتها ، إلا أنه لم يقصر في واحبه نحوها ، وحزن عليها ، وأقام لها
مأتما استمر ثلاث ليال ، وكل جمعه كان يزور المقرافه محملاً بالرياحين والغواكه " ان للرحال
حزناً غير حزن النساء " (١)

ولم يرث ياسين عن امه كل ما خلفته ، فقد سرق زوجها الأخير الحلي والنقود ، فبقى
للولد العقار الذي سميت الروايه باسمه ، لما شهد من احداث ، كان بطلها ياسين المزواج كأمه .

وفي رواية "السمان والخريف" ، تموت الأم في ذروة انكسار ابنها السياسي والوظيفي ، تموت في القاهرة ، وهو في الاسكندرية ، فيكون تعليقه الفوري ، مرتبطا بالته النفسية العامة ، " هذا هو المصير الأخير لكل مسكين وكل جبار ، أجل لكل جبار " (١)

لكنه ساعة الدفن ، خرج عن رزائقه ، فاغرورقت عيناه ، برغم ما بذل من جهد صادق لضبط مشاعره .

لقد جلب له موت امه ، مثل زواج خليته من ابن عمه ، جلب له الحزن . . . وكان أول شيء عمله بعد الانتهاء من تقاليد الموت ، ان علق على باب بيت امه اعلانا " للبيع " ليتمكن نصيبه منه ، ان يعيش حياة الأعيان ، أطول مدة ممكنه . (٢)

وفي " السكينة " ، يحدث موت الأم ، مزيدا من الأحزان لأولادها وأحفادها ، ويضاعف الفراغ الذي ختم على البيت ، بموت ابنها ، وزوجها ، وثلاثة من أحفادها ، ويغير معالمه . ويدفع بكمال إلى الأعراق في التأملات ، " لعلى تقول غدا بمق ان الموت استأثر بأحسب الناس اليك ، ولعل عينيك ان تدمعا حتى يزجرك المشيب . والندار إلى الحياة كأمسية لا يخلصون رومان طليقة طفليه ، والأجدر بك ان تدار اليها في محادثة كدراما ذات نهاية سعيدة هي الموت . ان الأم تموت وقد صنعت بناء كاملا ، فماذا صنعت انت ؟ " (٣)

وفيما الأم تحتضر بعد اصابتها بالشلل ، وأفاد الطيب انها لن تعيش سوى ساعات ، يصل نجيب محفوظ عن طريق تصرفات كمال وياسين ، إلى تقرير واقع الحياة بأمرنا المولسي ، وغدما الواعد . " يخرج الأخوان من البيت ، وعلى غير عادته ، لا يذهب ياسين إلى القسوة ، بل يسير مع أخيه كمال لشراء حزام لحفيدة ، بينما يشتري كمال رباط عنق اسود ، اذ ان الرباط الذي استعمله عاما حذادا على والده ، قد استهلك ، ويلزمه آخر حديد ليواجه به اليوم الحزين " (٤)

-
- (١) السمان والخريف — ص ١٢٠
 (٢) — ص ١٢٦
 (٣) السكينة — ص ٢٨٩
 (٤) — ص ٣٩٥

وفي " السراب " ، يأخذ موت الأم ، صفة الفجیعة ، وما یترتب علیها من تغییر اساسی فی النفسیة والتصرف ، كالمرض ، والهروب ، ونیة التصوف الروحی والجسدى .

اذ ان موتها ، یمثل ذروة المأساة فی حياة ولدها كامل رؤبه ، الذى لم یمتطع أن ینتزع نفسه من حضنها حتى وهو فی حزن زوجه .

كانت كل شیء فی حياته ، وكان كل شیء فی حياتها ، ولما فجع الولد بخيانه زوجه ، وموتها ، عاد الى امه منكسرا ، وصار حيا بأنسا شامة به - وكانت ترقد فی فراشا من نوبة قلبیسة اصابها اثر شجارها مع كنفها - وبلغها انه سیرحل ، ولن یعیش معها تحت سقف واحد ، ولتعتبره من الأموات .

وتنتحب الأم وتنام ، بينما یمخر الولد الى الشارع وینام فی المقهى ، حتى ما بعد الظہر ، فیلتقیه زمیل له وبعزیه ، وهولا یدرى انه یعزیه بأمه ، وحين یقرئه النعی فی الحریة ، یعتبر الخبر كذبا ، وعبثا سخيفا ، اراذ احدى ان یداعبه به " حملقت فی وجه صاحبی المحنون ، ثم اعدت تلاوة النعی وجميع جسمی ینتفض ، وصرخت بلا وعی هذا محال . . . هذا كذب " . (١)

ویذهب الى البیت ویرى سرادق الأم بعینه ، فیجن " لم اكن حزینا او متألما ، وانما كسفت مجنونا " . (٢) فقد اعتبر نفسه قاتل امه ، لانه خیل الیه انه سمعها قبل منادرتها المنزل فسی الصباح الباكر ، ولم یلب انداء ما ، فتصیه الحمى ، ووقع منمیا علیه ، وبظل ثلاثة ايام فی غیوبیسة ، تتخللها احلام مزعجة ، وحين یستیعظ یرى اخته واخاه بجانبه ، ویهتف متألما " قضی الله بالآشع لا ابي ولا زوجي الى مرقدهما الاخير " . (٣)

وبموت امه ، یحس كامل بأن الحیاة موحشة ، كالموت ، ویشعر بفراغ مخیف ، خلا البیست ، وخلت حیاتہ ، وخلت الدنیا جمیعا . وكان فی حیاتها یجد طمأنینة راسخة ، ویشعر فی اعمساق

(١) السراب - ص ٣٥٨

(٢) - ص ٣٥٩

(٣) - ص ٣٦٤

قلبه ، بأنه مهما نكدت الدنيا ، فله فيها حجرة دائمة الاشراف بالابتسام والحنان .

ويقرر ان يهرب من واقعه ووحدته ، بالتصوف جسدا وروحاً .

* وفي " الطريق " يؤذن موت الأم ، ببداية حياة جديدة للولد ، حياة لم يهيا لها ، ولم يألفها ، وليست طبيعية في أى حال ، فقد كانت امه قواده ، وابعدته عن حياتها في مدرسه داخلية ، وتكفلت بكل مصاريفه ، ففرغ عولاً متاع شبابه اليافع ، لكنها وهي تحتضربعد خروجها من السجن ، تعترف بأن له ابا حيا ، وانه يحب ان يذهب اليه ، والا فاضطر للعمل برمجيا او بلطجيا او قوادا .

- " لعله قد مات ..

- ولعله حى

- وهل اضيع عمرى في البحث عن شي ، قبل التأكد من وجوده ؟؟

- ولكنك لن تتأكد من وجوده الا بالبحث ، وهو خير على أى حال من بقاءك بلا

مال ولا عمل ولا امل . . (١)

تعطيه امه صورة زفافها من ابيه ، ووثيقة الزواج وفيها اسمه ، وتخبره انها هربت منه منذ ثلاثين سنة وهي حامل . وربما كان الأب الآن في الاسكندرية ، او القاهرة ، أو أى مدينة مصرية اخرى .

وفي المقبرة يهم بالأنحاء فوق القبر وهو مغرورق العينين ، برغم تجلده امام الرجال (الخنازير) الذين اتوا يعزونه ، لكنهم في الواقع يدارون شماتهم به .

ويلخص حالته النفسية ، حين عودته للبيت : " في شقة الجيران موسيقى ومدعوون ، وفي بيته القرآن يتلى في غرفة المرحومة ، اين هي الحقيقة واين هو الحلم ؟ امك التي ما تزال

نبرتها تتردد في اذنك قد مات ، وابوك الميت يبعث في الحياة ، وانت المفلس المارء بمسافر
ملوث بالدعارة والجريمة ، تتطلع بمعجزة الى الكرامة والحرية والسلام " . (١)

ويبدأ حياته الجديدة ، يبيع نفسه ، ويقرر الانتال للقاهرة المبحث عن ابيه ، ويضع اعلانا في
الحريدة ، متوقعا ان يتصل به سيد سيد الرحيمي . . . ولكن عبثا ، وتمضي حياته يوما بعد يوم
في الانتظار ، " لو انشأتك امك نشأة مناسبة ، لكنت اليوم قوادا سعيدا ، لكنها صانتك في
النبي دانيال ، لتعذب ابد الدهر ، ثم احيت اباك ، لتحرمك نعمة اليأس " . (٢)

وتدخل حياته في القاهرة امراتان : كريمة ، زوجة صاحب الفندق ، وعي امتداد حي لأمه
فيما تهبه من متعة ، وفيما توراه من جريمة . والهام ، الصحافي ، تجسيد لآتيه فيما تحده ، وفي
انها حلم عسير التحقيق .

(١) الطريق - ص ١٨

(٢) - - ص ٩٠

٣ - موت الأولاد :

- أ - اسبابه .
- ب - آثاره النفسية والاجتماعية .

١ - الأسباب :

- ١ - الاغتيال السياسي : فهمي عبد الجواد في رواية " بين اقصرين " ، يقتل فسي احدى المظاهرات السياسية ، اثناء ثورة سنة ١٩١٩ .
- ٢ - الموت بالسل : رشدي عاكف في رواية " خان الخليلي " ، يموت بالسل ، لانه لم يتبع ارشادات الطبيب ، بالانتقال الى المصحى ، خوفا من الفضيحة الاجتماعية ، ومن فقد الوظيفة .
- ٣ - الموت بالتيفوئيد . : ولدا عائشة شوكت ، الحد ثان ، يموتان مع والدهما بالتيفوئيد ، في رواية " قصر الشوق " .
- ٤ - الموت اثناء الولاده : نعيمه ، ابنة عائشة ، المصابة بقلبها منذ ولادتها ، تموت في رواية " السكرية " ، وهي تضع مولودها البكر .

ب - الأثر النفسي والاجتماعي :

اغتيال "فهمي عبدالجواد" في مظاهرات سياسية ، وتبلغ الوالد موته من رفاقه الشباب ، وكان رد فعله الأول ، عدم التصديق ، " كيف اصدق أن فهمي مات حقا ، فهمي الذي تركنا هذا الصباح ممثلًا صحة وعافية وأملًا وسرورًا ، مات ٠٠ مات !! لم أراه بعد اليم لا في البيت ولا في أي مكان من ظهر الأرض ، كيف يكون البيت من دونه ؟ كيف اكون أنا بعده " ؟؟

إن الأب الجبار ، البطاش ، يقف أمام الموت متألمًا ذليلاً ، لم يعد ثمة أمل إلا في الصبر . .
آه هل تشعر بوخز الألم الحاد ؟ هذا هو الألم حقا . . كنت تخدع أحيانًا ، فتزعم أنك متألم ، كلا ، لم تتألم قبل اليم ، هذا هو الألم حقا .

وتخونه قدماه وهويهم بدخول بيته ، وهو الذي كان يدخل بيته ، فتخون الجميع أقدامهم ، لرعبته وسأوته ، ويقف أمام البيت حائرًا " أأمر بمنع الأصوات كما أمرت بمنع الزغاريد من قبل ؟ أم تصوت بنفسك ؟ أم تدعو النائحات " (١)

أما الأم - ولتلتقيها في رواية قصر الشوق ، وقد مضى على ثكلها خمس سنوات - فقد زادها موت ولدها سلبية ، فهي تلوم نفسها ، أنها تعيش بعده ، " ثمة ما هو أفظع من النسيان ، هو تمتعك بالحياة ، وحرصك عليها " (٢) وتمثل هذا الحرص ، في تعلقها بكمال - ابنها الثاني - إلى حد ضايقه ، واستفزه للذود عن حريته وكرامته .

والحق الإنساني الوحيد ، الذي حصلت عليه ، هو حق الغضب ، وزيارة القرائنة والسكّريه .

(١) بين القصرين - ص ٥٧٥ - ٥٧٧

(٢) قصر الشوق - ص ١٨٢

وبالنسبة لكamal ، فان " مقتل فهمي " ودخول الموت الى عالمه ، وموقف ابويه من فهمي واستشهاده ، كانت من العوامل التي كوّنت شخصيته المتألمة المتشككة . كثيرا ما تسأل عن حقيقة امرهم ، أعم " مشهورون " كما تزعم امه ، ام هم أبطال فدائيون كما يقول فهمي ؟ ذاك صراع عجيب قضى عنفه بأن تنفشر عناسره الجوعرية في نفس كمال بلا وبي او قصد فتغدوا سما ، سعد زغلول ، الانجليز ، الطلبة الشهداء ، المنشورات ، المظاهرات ، من القوى المؤثرة الموحية في اعماقه . (١)

لذلك أصبح كمال وفديا عقائديا ، فقد تلقى الوفديه عن فهمي ، واقتربت في قلبه ، باستشهاده وتضحيته ، وربما أثرت تضحية فهمي في حياته ، بتضحيته هو في حبه " فهمي نحس بحياة واعده في سبيل مية رائعة ، وحي هو شهادة الدنيا ضد المشائمين من خصومنا ، علمني ان الموت ليس املع ما نخاف ، وان الحياة ليست ابعج ما نبتغي ، وان من الحياة ما ينلنا ويفسر حتى يلتمس الموت ، ومنها ما يرق ويشرى ، حتى يدفعوا الى الخلود . " (٢)

وفي رواية " خان الخليلي " ، ينزل موت الولد الشاب بالعائلة ، الحزن والالام ، وبنا على رغبة الام الثكلى ، تقرر العائلة ان ترحل عن الحي : هذا حي شوم ، حثته على كره بني ، ومما احببته قط ، وفيه مرض ابني ، وفيه قضى ، فدعنا نهجره بغير أسف . " (٣)

والواقع ، ان الاب ، قد ران يداوى جرحه بالاثمان ، أما الام ، فقد ذهلت في حزنهما عن كل شيء حتى الاثمان . وكانت تخاطب ربها " ما غرد نيا ، لو تركت لي ابني " ، وأصرت على ترك الحي ، الذي كانت العائلة قد لجأت اليه ، هربا من الغارات الجوية التي كانت تقصف مصر ،

أبان الحرب العالمية الثانية .

(١) شكرى ، غالي - المنتهي - ص ٢٢

(٢) قصر الشقوق - ص ١٨٦

(٣) خان الخليلي - ص ٢٦١

وبكثير من الجهد والعناء ، يجد احمد شقة خالية بحي الزيتون ، تنتقل اليها العائلة ،
ومعها احزانها ، وكآبتها .

وفي رأى غالي شكرى : " ان احمد - الاخ الكهل - قد ذهب ضحية رشدى ، الذى
وأد - من حيث المظهر - أمل اخيه . فرشدى احب ، وخطب الفتاة التي احبها الكهل ،
ثم مات دونها ، فأصبحت محرمه عليه ، وبموت رشدى ، بات احمد هو المعيل الوحيد لوالديه ،
وغدت الدرجة السابعة ، هي آماله ومبتغاه ، وتحول احمد الى كتلة من الماضي " من الحذور ،
" من الزمن " ، ومات معنوياً . (١)

حتى أخبار الحرب والغزو المرتقب لمصر على يد رومل ، وما يمكن ان يحدثه الغزو - من
خراب ودمار ، لم تحرك عند احمد عاكف ، غير شعور بلذة خفية عكستما اعصابه المتوترة ،
كأن ذاك الغزو المرتقب سيبيد فيما يبيد ، احزانه وآلامه ، وسيمحو فيما يحو من آثار الماضي ،
آثار ماضيه .

وفي " الثلاثية " ، يختار نجيب محفوظ ، واحدة من امح افراد العائلة ، وأكثرهم حباً
للحياة ، ليجعلها هدفا للترمل والشكل ، كأنه يريد بذلك ، ان يدلل ، على عبث الأقدار . فلقد
عاشت عائشة مع اسرتها ، حياة سعيدة رغيدة ، كأنما الحياة ^{لها} لبوا خالصة ، هي غاوية غناء ، وابنتها
نعيمه غاوية رقص ، ويشاركهما لهوهما ، زوج محب ، وولدان قرت بهما الاعين .

ويمرغ الزوج والولدان بالتيفويد ، ويقرر الأطباء ان لا أمل لهم ، ويقف كمال - صوت العقل
المتفلس - متأملاً اسباب الموت " كما اختطف الانكليز حياة فيمي ، فان التيفويد سيختطف حياة
هذه العائلة ، الانكليز او التيفويد سيان ، او غير ذلك من الأسباب . (٢)

(١) شكرى ، غالي - المنتهي - ص ١٣ و ١٣١

(٢) قصر الشوق - ص ٤٦٢

ونلقى عائشة ، في رواية " السكريه " ، بعد ثماني سنوات من فقد زوجها ، وولديها ، وكانت قد اصبحت في الرابعة والثلاثين . نلقاها امرأة مولىه ، اصابها تدهور وانحلال ، شحبت بشرتها ، ونشأت عظام وجهها ، وغارت عيناها ووجنتاها .

رجعت عائشة ، لتعيش في بيت ابيها ، ولتكسر تقاليد البيت الصام ، والواقع ان الموت ، قد كسر تلك التقاليد ، فبعد ان كان التدخين رجسا من عمل الشيطان ، اصبحت بوسع عائشة ان تدخن علنا ، واصبح بوسعها ان تنقطع عن عمل البيت ، منصرفه الى القنود ، وحسو القهوه ، والتدخين . كذلك منعت ابنتها نعيمة ، ان تعمل بتقاليد البيت ، فلم يواجبات ست البيت " ان ابنتي لن تتحمل اى جهد فدعيها وشأنها ، لم يعد لي من امل في الدنيا سواها . " (١) والواقع ان عائشة احبت كل شيء ، يصدر عن وحيدتها : تدينها ، وصوتها ، والتصاق الفتاة بها الخارق للحد ، ولم تطلق ان تسمع عنها اية ملاحظة ، بل انها كانت تنيق بالنقد عامة .

واصبحت ام فهمي - بعد ان كانت السيدة المطاعة التي لا يرد لها - اللب - معتادة أن تتحمل ما قد ينم عن ابنتها الثكلسى من جفاء في الرد ، او تسوة في الملاحظة ، بصدر رحب ، وعطف سمح ، وتغيرت معاملة خديجة لاختها عائشة تغيرا كليا ، فلم تبتدر منها طوال ثمانين سنة اعوام ، كلمة واحدة تنم عن سخرية ، او خشونه ، خشوعا حيال تعاستها ، وخوفا من الاقدار التي قضت بما قضت ، واشفاقا من ان تضع المرأة المحزونة حظيها موضع المقارنة .

والوحيد الذى كان يتجرا على ان ينصح عائشة بالتقليل من التدخين والقهوه ، هو ياسين ، باعتباره مثلها ، فقد وليدا ، وكان هذا الفقدان ، السبب في مصالحة اهله لزوجته ، العواده زنوبه .

كانت العائلة ، تراعيها في المشاعر والتصرفات ، وتولي حالتها النفسية جل الاهتمام ، وقد بلغ من تعاليف اختها خديجة معها ، انها حثمت على ابراهيم شوكت ، وزوجها ، ان ينزل عن حقه المشروع في ميراث اخيه المتوفي ، لنعيمه ، فأل الميراث كله لعائشة ، وابنتها . (١)

وبمرور الزمن ، بدأ التغيير واضحا ، في تفكير وتصرف الأب الصام ، السيد احمد عبد الجواد ، الذي قبل ان يزوج حفيده عبد المنعم ، التلميذ ابن الثامنة عشره ، إلى حفيدته نعيمه ، لأنه اعتبر زواج نعيمه ، سببا يخفف من لوعة قلب امها ، سمح السيد للصبيان ، في هذا الخارف ، ان يملوا ارادتهم على الكبار ، وان يتزوجوا قبل ان يتجاوزوا مرحلة التلمذة ، وهو الذي رفض فكرة اعلان خطبة ولده ، فهمي ، الذي مات قبل ان يجني ثمرة شبابه الغض .

وأحس السيد ، بأن العالم قد انقلب على رأسه ، وان دنيا أخرى عجيبة تشبه ، انسا غريبا ، بين أهلينا . (٢)

وتتزوج نعيمة ، وهي دون العشرين ، وابن عمها ، وابن خالتها ، وتذهب إلى السكّريه . ويفتح باب السكّريه امام امها ، عائشة ، التي ظلت تتحاشاها . كان يمكن ان تتغير حياة عائشة بزواج نعيمه ، وما يمثل هذا الزواج من خصب واستمرار ، لا سيما وان نعيمه حملت ، ومجسي ، الأحفاد ، يعوّض عن خسارة الأولاد ، عاطفيا ، وعمليا ، إلا ان ما كان يخشاه الجد المتأمل برحمة الله ، العارف بأن نعيمة ولدت ذات قلب ضعيف ، وانها لن يمتد بها العمر ، فسي رأى الطب ، إلى ما بعد العشرين ، قد حصل ، ماتت نعيمه اثناء الطلق .

(١) السكّريه - ص ٢٨

(٢) - - ص ١٤٤

وكان موتها كارثة ، ضجت الحجرة بالصوات ، ولطمت خديجة - حمايتها وخالتها - خديدا ،
وتشهدت جدتها امينه في وجهها . أما عائشة ، فرمت بناظرها من النافذة المظلة على السكّريه ،
وتردد صوتها كالحشرة . " ما هذا يا ربي ؟ ما هذا الذى تفعله ، لماذا ؟ لماذا ؟ اريد
ان افهم " . (١) والمبت من الجميع ان يخرجوا من الغرفة ، لأنه لن ينفعها الكلام . وكانت
نعيمه ، كل ما تبقى لها ، فلم يبق لها شيء في الدنيا .

ويرد الجميع الى واقع الحياة ، ايمانهم بقضاء الله الذى لا بد منه ، الا الام ، التي اندلعت
عن الدنيا ، وعن الناس ، ولزمت البيت بالأسود . " لا استطيع ان ارى السكّريه ، ولا معارف لي ،
لم يعد لي معارف ، لا الحقيق زيارة احد " . (٢)

وأدمنت شرب القهوة والسجائر ، ولم تعد تأكل الا لقعات . . انقلبت هيكلها عالميا كسبي
جلدا باهتا ، واخذ شعرها في السقوط ، وتكالبت عليها العلل ، حتى اشار عليها ال ابيب بالتخلص
من اسنانها .

وكانت زيارة القرافه ، هي التقليد الوحيد الذى لم تشذ عنه مرة ، كانت تنفق فيها بسخاء ،
وتهبها عن طيب خاطر كل ما ملكت يمينها ، من ميراث زوجها وابنتها ، حتى استحال حوش المقبره ،
حديقة غناء ، موشاة بالأزهار والرياحين .

وبازدهار المقبره ، اتخذ البيت القديم مع الزمن ، صورة جديدة تنذر بالانحلال والتدهور ،
انفرط نظامه ، وتقوض مجلسه .

ووصلت المأساة ذروتها في حياة عائشة ، عندما ورثت عن ابنتها " فضحكت ضحكات جنونيه ،
 واصبحت كمن اصابها مس من الحنون ، ولم تزل توغل في دنيا خاصة خلقتها لنفسها ، هي دنيا

(١) السكّريه - ص ١٨٨

(٢) - - ص ٢٠٤

الوحده ، والتصفت بها عادة جديدة ، هي محادثة نفسها ، خاصة حين انفرادها ، ولكنها
كانت تخاطب اصواتا لا اشباحا ، وفي ذلك عزاء المحيطين بها . (١)

٤ — موت الحبيب :

اثره النفسي والاجتماعي :

تندر في مجتمع نجيب محفوظ ، حوادث الحب الرومانطقي ، واذا ظهرت بعض ملامح له ، فلعجز ونقص في شخصية المحب ، قاسى منهما في مختلف نواحي حياته ، فهو يحب ، ولا يستطيع ان يحصل على محبته (كمال عبد الحواد) ، واذا حصل عليها ، لا يستطيع الاحتفاظ بها (كامل روبة) .

يعرف كمال ، بعد ستة عشر عاما من فراقه لحبيته اثر زواجها ، مصادفة ، ان عايدته قد ماتت منذ عام . فيشعر بدوامه الفناء في رأسه ، وتصيبه دهشة ، وارتياح ، ويتمتع عاجزا " اني حزين يا عايدته لانني لم احزن عليك كما كان يجدر بي . " (١)

ويلجأ في عجزه الى الاموات ، الى اخيه ، وابيه ، وبنت اخته ، متسائلا : هل يمكن ان يعرفوها ؟ وهو الذي مشى في جنازتها ، وهو لا يدري من هي . كان يقيم بواحيه ، كمدرس ، تجاه المفتش — زوجها الثاني — وكان نعشها ملفوفا بالحرير الابيض ، حتى تهامس بعض زملائه . انها عروس ا وقد ماتت بذات الرئة .

وفيلسف الكاتب ، موقف كمال العاجز ، بأنه نتيجة لمرور الزمن " لو وقعت هذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجن او انتحر ، اليوم تمر به كخبر من الاخبار " . (٢)

ولكن كمال لم يجن ، ولم ينتحر ، امام ضياع الحبيبه بالنزاج ، وحين لاح له فرصة اخرى بالحب والنزاج من بدور ، اخت عايدة ، أضاع الفرصة .

(١) السـمـريـه — ص ٣٧١

(٢) — — — — — ص ٣٧٠

ذلك أنّ كمال ، اضاع عايده ، لانه كان يمثل في مالع حياته — كما يقول غالي شكرى —
 الجيل الجديد من ابناء البرجوازية الصغيرة المثقفين ، الذى يتخذ من التسامي سلما يعلو به
 على طبقته ، والفكر . والحب الرومانسي ، هما الجناحان اللذان يحلق بهما عاليا فوق المجتمع ،
 بطبقاته ومشكلاته ، هما الجناحان اللذان يصلان به الى مستوى " الحب " الملق والفكر
 المطلق . (١) لذلك حلّ الفكر محل المهام ، فاستغرق حياته بنهم ، وغدت فرحة الاُفراح
 ان يعثر على كتاب جميل ، او يظفر بنشر مقاله .

وحين لاحت له بدور ، وكانت قد نزلت من عليا طبقتيما الاجتماعية ، بخسران الاُسرة كافة
 املاكها ، واصبحت توازيه اجتماعيا ، ظل جامدا في خطواته لا يتقدم برغم ملاءمتها له ، وتقال
 لنفسه : ان المفكر لا يتزوج وما ينبغي له ، فلقد كان كمال ينظر الى فوق ، ويظن انّ الزواج
 سيحمله الى النظر الى تحت . . كان — وما يزال — يلذ له موقف المشاهد المتأمل بقدر ما
 ينفر من الاندماج في آلية الحياة ، وانه ليضن بحريته كما يضن البخيل بماله ، والى هذا كله
 فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضي اسبوع دون مسرات فكرية ، ولذات جسديه . ثم انـه
 حائر ، يداخله الشك في كل شيء ، والزواج نوع من الايمان ، كان يؤمن في اعماقه بأنّ الزواج
 قبه لا حبه ، وكان يساوره شعور قريب بأنه يم يدعن للزواج ، فسيقضي عليه قضا مبرما . (٢)

واكتفى كمال ، عندما علم بموت الحبيبه ، بأن يردد " سوف يمضي وقت طويل قبل ان يسكن
 جيشان هذا الصدر ، لا من الحزن والالام ، ولكن من الذعول والدعشة ، ومن خلو العالم من
 مباهج الأحلام ، ومن ضياع سر الماضي الساحر الى الأبد . (٣)

(١) شكرى ، غالي — المنتهى — ص ٣١

(٢) — — — — — ص ٥٦

(٣) السـكـر— — — — — ص ٣٧١

في رواية "أولاد حارتنا" ، تموت الزوجة الحبيبة بمرض ، ظلت تخفي آلامه عن زوجها الذي يصغرها كثيرا ، لأنه كان منشغلا برسالته في الحي . وهي تخجل ان تثقل عليه ، حتى لا تعين أعداءه ، بغير قصد عليه .

ناسم — الزوج — ودّ لو يفتديها من الموت ، وساعة دفنها ، بكت جميع حواسه وجوارحه الآعينية ، وتغنى في وحدته وألمه ، ان تكون ابنته كأمها لينة وحنانا ، "وعزاه وجودها لتظل رمزا باقيا للعلاقة المحبوبة التي مزّجها الدهر" . (١)

وتكون نتيجة وفاة الزوجة ، ان يترك الزوج الحي هربا من خصومه ، وكانوا يرهّبونه . بسبب نفوذ زوجته ، الأرستقراطية ، الثرية .

ولم يطل الوقت بالزوج حتى تزوج بعدها ..

الموت يحزن الشباب ، لكنه لا يضلّهم لقبول حياة لا يرتضونها ، في حين يهزم الموت الشيخ . وفي أقصوصة "القهوة الخالية" ، من مجموعة "بيت سي" السمعة ، يضطر ابن — التسعين ، الذي فقد زوجته ، ان ينتقل للعيش مع ولده ، وكنته ، وحفيده ، فيفقد الكثير من حريته ، وسيادته . ويقاسي من حفيده الشرس ، مرارة بالغة ، ومع ذلك يصبر ، لأنه لا بد من العيش مع احد اولاده ، بعد وفاة الزوجة الرفيقة ، والصديقة ، والمساعدة .

وينسب نجيب محفوظ ، هذا الموقف التعس ، للزمن ، " فالزمن بالنسبة للفرد هادم لذاته ، ومفني شبابه ، وصحته ، وهو القاضي على اصدقائه واحبائه " . (٢)

أما كامل رؤبه ، الجبان ، الخجول ، الضعيف ، الذي اقنعت زوجته الحبيبة ، ان تظل العلاقة بينهما علاقة براء ، والذي ظلّ مؤمنا بظهر زوجته ، وبراءتها ، برغم انه ضبط معها رسالة رفضت ان تقرأها ، ومزقتها ، هذا الانسان الجبان ، انقلب الى نائر على نفسه امام

(١) أولاد حارتنا — ص ٣٩٢ (وقاسم طبعا هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وزوجته هي خديجة)

(٢) شوشه ، فاروق — مع الأدباء ، نجيب محفوظ — مجلة الآداب — العدد ٦ — حزيران ، سنة

الموت ، وشك في سبب الموت ، فقرر ان يستدعي وكيل النيابة ، والطبيب الشرعي ، بعد ان اجتاحت ثورة عارمة تتحدى قوة الموت نفسه ، وبطش القضاء . أبى ان يصدق عينيه ، واستعصى عليه الاقتناع ، فلم يقتنع بأدعاء الطبيب ان البروتون ثقب معه لسبب خارج عن ارادته — وهو قد تركها مريضة بالأنفلونزا — " لن يهدأ خاطري حتى اعمل عملاً ترتج له القلوب ، لقد تمخض خضوع العمر في " ، عن ثورة جامحه ، وغضب ناري ، وشر مستطير ، نسيت الجنة والحزن ، وتخيلت الشياطين لعيني ، لتنفذ الدواهي على رؤوس المجرمين . (١)

ولكنه حين يكتشف ان " المحرمه " ، لم تكن سوى زوجته ، وأن العملية كانت عملية احمرار ، تنازعت احاسيس متضاربة ، شطرت شارين ، استحال قلبه بعد ان ترأى بيت من كانت زوجته ، الى حمرة من نار ، يتطاير عنها شر الغضب ، والشفاء ، والمقت . ولكن كيف كان عليه ان يرسلها الى القبر مكفنه بالفضيحة ، ألم يكن الاخلق به ، ان ينتهز الفرصة المبذولة ، فينقذ نفسه ، ويستبرئ شرف المرأة التي احبها واحبته .

وتظلل الاحاسيس تصطرع في نفسه ، الى ان يتورم قلبه من الحقد والغضب ، ويحد في المصير الذي قضى على زوجته وعشيقها به — هي في القبر ، وغريمه في السجن — راحة وغبطة . ويعود الى بيته بعد ان سكر ، فتقابلته امه المريضة بالقلب ، والتي تشاحرت مع زوجته قبل وفاتها ، تقابله بالتعزية :

— " ليتني كنت فداها .. كان ينبغي ان تبقى هي لك ..
— كذب ؟! محال ان يرضى انسان بأن يفقد آخر من الموت .. أكت تقولين هذا لو كانت ما تزال على قيد الحياة " . (٢)

(١) السراب — ص ٢٢٩

(٢) — — ص ٣٥٣

وينفجر غضبه في امه التي كانت كل حياته ، ويحنق عليها ، كما لو كانت السبب فيما حلّ من كارثة ، ويزيد من حنقه ، ما وقع في نفسه من انها تدارى بهذا الحزن ، فرحاً ، وشماته . ويخبرها انها قتلت اثناء اجهاضها ، وانه ليس والد الطفل . .

— " كامل . . رحمة بنفسك ، رحمة بي ، انت لا تدري ماذا تقول ؟
— بل ادري اكثر مما تتوقعين ، لقد عرفت في يوم ما لا يعرفه مثلي في جيل ،
قلت لك انها اخفت الامر عليّ وذهبت الى والد الجنين ليجهضها فأخطأ وقتلها .

— اللهم لطفك يا ارحم الراحمين .
— الا يزال ارحم الراحمين ؟ وداعا فلن اعبدك بعد اليوم . . (١)

الله ، واه ، الملجأ الوحيد له في حياته ، مرفأ الراحة والصبر والسلوان ، كفر بهما في ثورته ، لقد نقلته حالة الموت والخيانة ، من النقيض الى النقيض . لكن هذه الحالة لم تدم طويلاً ، ولما عاد اليه عدوه ، عاد اليه جنبه ، واستسلامه ، وعروبه " لشد ما تعاودني تلك الرغبة القديمة في الهرب . . اين مني بلد بعيد لم يلحق ابوابه طارق ، من لي بأن اقلع كل صلة تربطني بماضي البغيض ؟ آه لو يمكنني ان اولد من حديد ، في عالم جديد ، لا تلالعني فيه ذكرى من ذكريات هذا العالم . اجل لن استأج ان اواصل حياتي ، على حين يتبعني هذا الماضي كالظل الثقيل . . (٢)

وأما العالم الذي رغب فيه ، فهو عالم التصوّف " حيث يستحم جسدى بما عطر ، وتتسامى روحي في صفاء ونقاء ، فلا مشهد ارنو اليه الا السماء ، ولا خاطر ينبتو في نفسي الا الله . . (٣)

(١) السراب — ص ٣٥٤

(٢) — ص ٣٤٩

(٣) — ص ٣٦٦

٥ - الانتفاع من الموت :

فيما عدا حالات الوراثة ، يجد بعض افراد المجتمع في الموت ، بابا للرزق ، حللا أو حراما : التري ومساعدته ، والسقاء ، والعميان المرتلون ، يعيشون كلهم من الموت ، والموت بالنسبة لهم أكل عيش ، " بعد ان خرج التري ومساعدته من الفوهة الترابيه ، اتبلا يسدان القبر ، ثم يسويان الأرض في نشاط وحيويه . ونادى السقاء على الماء ، ورتل العميان ، ثم ردد رئيسهم التلقين ، وتقدم التري منه خطوات ، عند ذاك قال الواقف الى يمينه " دعه لسي فلا تحاسبه ، اني ادرى بهؤلاء الناس . (١)

تجار يسامون ، وينتفعون من الموت بالحلال . وهناك سارقو القبور ، ضحايا الفقر ، الذين يغزون الأموات ، ذوى الأسنان الذهبية ، فيستولون على أسنانهم . وفي رواية " زقاق المدق " ، نتعرف على صانع العاعات ، ودكتور الأسنان ، اللذين يتوجهان الى المقبرة ليسرقا أسنان الميت الذهبية ، ومع ان هذه المخاطرة ، لم تكن الأولى من نوعها ، إلا ان فؤاد الدكتور كان خافقا ، وريقه جافا ، وأعصابه متوترة ، في حين جلس زيطه جامدا ، رابسط الجأش ، لا يبالي شيئا . كان الدكتور يدخل القبور على كره ، ولطالما ناشد زيطه ان يعفيه من دخول القبر ، لكن الآخر أبى ان يؤدي له هذه الخدمة ، إلا اذا شارك في جميع خلاتها ، مستلذا في أعماقه ، تعذيبه . ويقبض عليهما ، ويشيع خبرهما بين أهل الزقاق ، فيقابسل بالدهشة والآنزعاج ، وتصاب سنيه ، العروس العجوز ، بالأعما ، بعد ان ركب لهما الدكتور طقما ذهبيا . (٢)

وكما ينتفع افراد المجتمع من الموت ماديا ، ينتفع البعض الآخر في ازالة غمه عن القلب ، والتخلص من هاجس حالة نفسيه ، وفي اقصوصة " صوره " من مجموعة " خمارة القلب الأسود " ،

(١) الطريق - ص ٦

(٢) زقاق المدق - ص ٢٤٣ و ٢٤٥

تحسّ الزوجة بما يشبه اعم الارتياح - لولا رحمة الموت - وهي تاللع صورة خادمتها ، السّتي
طردها منذ خمس سنوات ، في الجريدة ، قتيلا • ونفهم من حوارهما مع بنتها ، سبب طردها ، ومن
ثم ارتياحها لغيابها الدائم :

- " مسكينة كنت احبها ، وبابا لم يرغب ابدا في طردها ••

وقلّبت الأم عند ذكر " بابا " وغامت عيناها بذكريات متلقه ، فيما بدا ، وقالت
بصوت جاف ••

- كفى ، الله يرحمها وكفى •• (١)

وبرغم الاضطراب الذي اعترى السيد أنور حامد ، إلا أن صورة الفتاة القليل ، تعيّد
الطمأنينة ، والراحة اليه • وكان الرجل قد اغتصبها وهي عذراء ، ثم اضطر حين حملت ، أن يتزوج
منها زواجا عرفيا ، الى أن نجح في اجهاضها واردها • ظهرت صورتها وموشارع في الزواج ،
فكان ذلك إيذانا بنهاية متاعبه ، وبظهوره بمظهر الرجل النظيف امام الناس والأهل • (٢)

(١) خمارة القط الأسود - ص ٢٣٥

(٢) - - - - - ص ٢٣٧

الفصل الثاني

الموت في نطاق المجتمع والعلاقات العامة

- ١ - القتل الانتقامي
- ٢ - القتل الإجرامي
- ٣ - شهداء وضحايا
- ٤ - موت العاشق الشاب
- ٥ - الموت بحادث
- ٦ - موت الزعيم
- ٧ - الانتحار

لما كان أدب نجيب محفوظ ، يعبر عن مرحلة تفسخ البرجوازية وانهيارها ، وينقــد
هذه الطبقة بمنتهى المرارة ، ويكشف القناع عن وجهها الدامي ، عن انانيتها ، وجشعها ، ولا
اخلاقيتها ، فإنه من المنطقي ، ان يكون لمثل هذه الطبقة ضحايا ، وضحاياها هم أبناء
الطبقة المتوسطة الصغيرة ، الذين يصارعون للتسلق ، وغالباً ما ييؤ هذا التسلق بالاختناق ،
والاختناق غالباً ما تكون نهايته الموت .

ثم ان نجيب محفوظ ، يكتب عن مرحلة النضال الدامي من اجل الحرية والاستقلال ،
عن مرحلة وجود محتل على ارض مصر ، متأمر مع الأذلاء والرجعية ، مستبج لنفسه ان يستعمر
كل طيبات مصر : " اللحم والفاكهة والنساء " (١) ولمقاومة هذه القوة اللاغية ، لا يـد
من وجود ضحايا .

ضحايا يموتون بدافع الانتقام ، بدافع الأحرار ، بدافع التقاليد ، بدافع قمع
المظاهرات ، بحوادث السيارات ، وضحايا ينتحرون . .

(١) خان الخليلي - ص ١١٥

١ - القتل الانتقامي :

أسبابه ونتائجـه :

للقتل الانتقامي اسباب ، ينبع بعضها من تركيب المجتمع الطبقي ، وفجعية أفرادـه بنماذج منه ، يتخلون عن كل ما هو شريف وتلطف في هذا العالم . وينبع بعضها من تقاليد هذا المجتمع ، في العيب ، والشماتة ، والحرام ، والنار . وينبع بعضها الآخر ، من حدة الطباع ، كرفض المزاح الثقيل مثلا ، أو الغيبة .

في رواية " اللص والكلاب " ، يواجهنا نجيب محفوظ دفعة واحدة ، بسعيد مهران ، وهو في قمة ازمتـه ، بعد ان فقد اربعة اعوام من عمره غدرا ، وفقد زوجته ، وكتبه ، وانكرته ابنته ، واحتقره وطرده مشجعه الأول على السرقة ، الذي اصبح صحافيا لامعا . ثم يسير بنا معه ، ليوكد هذه الازمة طولا ، وعرضا ، وعمقا ، حتى يصبح سعيد مهران ، وثيقة احتجاج صارخة ضد الظلم ، والضياع ، والخيانة .

هو ضد عlish ، صديقه ، الذي داس على الصداقه ، والامانة ، والاخوة ، في سبيل الحصول على منصب سعيد ، وزوجته ، وهو لذلك يريد ان يقتله .

وهو ضد نبويه ، زوجته وحبيبتـه ، التي داس على الحب ، والابنة ، والزوج ، تحقيقا لنزواتها ، وارضاء لنوازع الخيانة الخبيثة ، التي ركبت في اعماقها .

وهو مع رغبته في قتلها ، يبقي على حياتها ، من اجل ابنته : " بفضل سنا " وهبشك الحياة ، لكنني احطتـك بعقاب اشد من الموت ، هو الخوف من الموت ، الذعر الابدى . " (١)

وهو ضد رؤوف علوان ، مثله الأعلى ، الذى داس على مبادئه ، في سبيل صعوده السلم ، منحرفا بذلك عن جوهره ، بعد خروجه من المعتقل .

وهو لذلك ، يريد ان يقتله ، " لانه رمز الخيانة التي ينضوى تحتها عيش ، ونبويه ، وجميع الخونة في الأرض . . والرصاصة التي تقتل رؤوف علوان ، تقتل في الوقت نفسه ، العيب ، والدنيا بلا اخلاق ، ككون بلا جاذبية . . (١)

وفي رأى صبرى حافظ ، " ان " مأساة سعيد مهران الحقيقية ، هي انه بقي وحسده في عالم النسياع ، برغم تأييد الملايين له ، لقد ناغل ولم يستسلم ، فكان الصراع بين الأتســــــــــــــــان النظيف ، الذى لا يجد حتى قلرة هوا ، نقية يتنفسها ، وبين عالم كامل من الخونة والأوغاد ، بين الثائر الفردى ، وعالم الخونة الاجتماعى ، صراع فرد نواياه لييه ، ولكن ينقصه الدائم ، ضد عالم من الخونة محكم التنظيم . . (٢)

لذلك ، كانت رصاصاته دائما تخليء الهدف ، وتصيب الأبرياء ، فعندما أطلق النار على عيش ، كان القتل شخصا آخر ، عاملا بريئا ، اسمه شعبان حسين " أى عزيمة جنونية ، أى جريمة بلا جدوى ، وسيطارده حبل المننقة وعيش آمن ، هذه هي الحقيقة ، كأنها جوف قــــــــــــــــبر انكشف . . (٣)

وعندما أطلق النار على رؤوف علوان ، كان القتل البواب ، برى ضعيف آخر " أما مسدسك فالظاهر انه لا يقتل الا الأبرياء ، وستكون انت آخر ضحية له . . (٤)

وبالفعل ، كان سعيد مهران ، الضحية الأخيرة في اللص والكلاب ، لجأ أخيرا الى القرافة ، فحوصر فيها ، وخير بين الموت ، وبين الوقوف امام العدالة ، فازدري الموت ، وقام بالرصاص ، ورا ت

-
- (١) اللص والكلاب - ص ١٤٢
 (٢) حافظ ، صبرى - الاتجاه الروائى عند نجيب محفوظ - مجلة الآداب - العدد الحادى عشر ، نوفمبر ، سنة ١٩٦٣ - ص ٤٨
 (٣) اللص والكلاب - ص ٨٦
 (٤) - - - - - ١٤٦

عيناه المعذبتان بالخوف ، شبح الموت يشق الظلام ، وجففت سنا ، بلا امل ، وكانت النتيجة انه استسلم بلا مبالاة .

لقد اراده نجيب محفوظ ، ضحية رمزا ، فتك طبقة من المجتمع ، طبقة اضعف منها " ان من يقتلني يقتل الملايين ، انا الحلم والامل وفدية الحبناء ، وانا المثل والعزاء والدمع الذي يفضح صاحبه " . (١)

وفي الاقصوه القصيره " الوجه الآخر " ، من مجموعة " تحت المظلة " ، يظهر هذا الصراع الالبقي ، بمأساويه فاضحه ، حيث يقتل رجل الامن ، أخاه ، للمحافظة على عمله ، وتقدمه . فأخسوه في نظره " اعتدا ، برمجه ، بطلجة ، مخدرات ، عريضة ، سرقة ونهب ، وقتل اعراض " . (٢)

ولم يكن الأخ ، ليقول أخاه ، لولا انه يريد ان ينتقم ، وان يتسلق ، وليدس في طريقه من يعترض هذا التسلق ، ولو كان أخاه .

وأخوه ، في رأى صديق الطرفين ، العربي الفاضل :

- " ليس كائنا من جنس آخر غير جنسنا ، الحكاية انه اسير الاغواء التي وفقنا السى

كبحها . .

- شرب بطبعه . .

- الافضل ان نقول ان ثمة معاملات صادفته داخل البيت ، واخرى في الطريق .

- هو الفرق بين المدنيه والوحشيه . (٣)

(١) اللص والكلاب - ص ١٤٨

(٢) تحت المظلة - ص ٥٢

(٣) - - - - - ص ٥٢ و ٥٣

والواقع ان رمضان — الشرير — استولى على عروس عثمان — رجل الأمن — ، فحرمه من حياة اجتماعية ، بلا فضاء ، ولا عيوب . وهو الآن ، بمسلكه ، يهدده في عمله ، وامكانيات ترقيته ، لذلك فلا بد من القضاء عليه .

ويتصارع الاخوان ، ويقتل رجل الأمن ، أخاه . .

وتكون نتيجة القتل ، ان يسقط رجل التربية ، صديق الاخوين ، عن درجات سلم التسلق ، وان يختار الهروب من دنيا الصراع ، بالانزواء ، " سانبذ التربية ، والقواعد ، والطقوس ، لقد اضعفت ايامي في صحبة العقلاء ، سألهم بالاشياء العتيقة ، ساعز عن العقلاء الشرفاء ، وليجرفني الدوار . فليكونوا سعداء نافعين ، ولا مكن مجنونا محتربا . " (١)

ويتكسر الرجل ، ضحية جديدة ، من ضحايا المجتمع . .

وفي اقصوصة " حلم نصف الليل " ، من مجموعة " بيت سي " السمعة " ، تدفع الغيرة بالولد ، لأن يقتل ازواج امه ، واحدا تلو واحد ، دون ان تبدو عليه صفة القاتل ، ولا سماته .

فعباس ، في العشرين من عمره ، طيب القلب جدا ، تلوح في عينيه الواسعتين ، نالسة صامتة ، ولعلها نالقة بلغة مجهولة . يبتسم كالأطفال ، ويطلق ناره ولحيته ، ويحبهما . وهو امي " ، لم يحصل في الكتاب حرف ، ولذلك فتح له ابوه دكانا من دكاكين العمارة ، لبيع الحلوى ، والفول السوداني . فكان يغدق على الأطفال بغير حساب ، ولما تزوجت امه من حسين ، غاب عن الحي اياما ، ثم عاد وهو يقول لكل من يلقاه :

— " لا يصح ان يحل محل الأب رجل آخر . .

ورفع رأسه نحو مسكن امه وصاح بأعلى صوته :

— يا ام عباس . . . الله يسامحك . . " (١)

العريس الأول ، قتل بعد منتصف الليل ، دون ان يعرف قاتله ، وكان بعد زواجه من الأرملة الثرية ، قد اضطهدها ، واضطهد ولدها عباس .

وتتزوج المرأة مرة أخرى ، من شاب بدا لايها ، وانتهى بأن استولى على اموالها ، وشارك ولدها دكانه • ويقتل هذا الآخر ، بالطريقة نفسها .

ويكتشف بيومي اللبان ، ان القاتل ، هو عباس المسالم ، وذلك باعتراف القتل الثاني . لكنه " عند التحقيق نسي كل شيء " ، وتلك ارادة الله " (٢)

الزوجان ، ذعبا ضحية طمعهما بمال الأرملة ، أى انهما كانا يريدان ان يتسلقا ، والولد ، قتل بدافع الغيرة ، والمحافظة على امه ، وأموالها ، أى انه لم يرد لنفسه السقوط درجة عن السلم .

وفي اقصوصة " معحزة " ، من مجموعة " خمارة القط الأسود " ، يموت انسان ، ضحية مسزاج اراده بريئا ، هو نوع من عبث السكارى . فعندما رغب رجل وحيد ، في حانه ، ان يتسلق ، اخترع اسمين غريبين ، ونادى الغارسون يسأله عن صاحبيهما ، فنودى على احدهما بالميكرفون ، وطلبه الآخر بالتلفون • ومنذ تلك اللحظة ، طفق الرجل يبحث عن تفسير لهذه الظاهرة المحيرة . قالوا له ، اما ان تكون مصادفة خارقة جدا ، واما ان تكون ظاهرة طبيعية جدا .

(١) بيت سي ، السمعة — ص ٢٢

(٢) — — — — — ص ٣٣

ولم ينع بالتفسيرين ، كان يريد تفسيراً خليقاً بأن يرفعه درجات ، بأن يغير وجه حياته ،
بأن ينتشله من عمم الحياة ، ومازقها . كان يريد تفسيراً ، يساعد على التسلق ، ويعدّه بالقوة ،
والنور ، والامتياز . (١)

لقد قنع عمراً - لويلا ، بأن يكون كاتب حسابات ، يقتصر عمله على التعليمات المالية ، لائحة
المخازن ، والمشتريات والأوامر المنفذة لها .

وفي بحثه المضني عن معجزات يحققها ، يكتشف أن المعجزة الأولى التي حققها ، لم
تكن سوى عبث سكران برى ، أراد أن يمازحه . فيغورامله بالحياة ذات الامتيازات ، وبالقبـر
المبارك بعد الموت ، وينقض عليه بدورق النبيذ ، ويجهر عليه بالشوكة . .
وتسقط ضحية جديدة ، من ضحايا التطلع الطبقي .

وفي اقصوصة " وجهها لوجه " ، من مجموعة " بيت سي " السمعة " ، ينهال صعيديان من
انبوب ، على رأس ماسح الأخذية ، الطيب ، الذي لا أعداء له ، بالهراوات ، ولا يتركأه حتى يلفظ
انفاسه . حصل ذلك ، في الشارع العام ، أمام الناس .

سبب القتل ، ثأر قديم ، عمره عشرون سنة . فمنذ ذلك التاريخ ، هرب الصعيدي من بلده ،
إلى القاهرة ، في محاولة للنجاة ، إلا أن " العداوة القديمة لم تمت ، ومات الإنسان ، " حكاية لم تعد
تدهش أحداً ؟

العداوة القديمة في المجتمع الصغير ، ذهبت بحياة الإنسان ، وفي المجتمع الدولي .
تذهب العداوات بملايين الناس ، بسبب الحروب .

(١) خمارة القط الأسود — ص ١٣٣ و ١٣٥

- "ولكن لماذا تقم الحروب ؟؟
- العداوات ، الا لمان يستعدون لهذا اليوم منذ اكثر من عشرين سنة .
- عشرون سنة ، اذن كيف يمكن ان تنسى عداوة ؟!٠
- الناس لا ينسون العداوات ، ولكن من حسن الحظ انهم يتزوجون رغم ذلك !٠ (١)

عشرون سنة ، خمس عشرة سنة ، ما هم الا في اقصوصة "كله غير مفهومه" ، من مجموعة "خمارة القط الأسود" ، يظل حسونه ، ابن الفتوة ، الذي قتله المعلم حندين ، منتظرا خمس عشرة سنة ، ليفتك بقاتل ابيه وسط اعوانه ، الذين لا يعرفون من اين أتت الشرية ، ولا كيف صرغ المعلم .

النتيجة : " شعور بعجز مهين "٠ (٢) الا انه لو ظهر القاتل لهم لما توقفت النتيجة على الشعور ، ولتعدته الى ممارسة القتل ، كما حدث في اقصوصة "المجنونه" ، من المجموعة نفسها . ففي حارات الفتوات ، تنشب المعارك للسبب الخليلر ، والتافه ، على السواء ، وربما لمجرد نكته ، او غمزه عين ، او نحنة . (٣)

من بين المعارك التي ابتليت بها الحارة ، برزت معركة بروزا داميا لا ينسى . معركة غريبة ، فظيعة ، غامضة ، غطت على جميع ما سبقا ، او لحق بنا من معارك ، لذلك سميت بالمجنونه ، وكان ضحايا كثيرون ، لم تبق اسره ، الا وفقدت رجلا ، او اكثر .

وفي التحقيق ، لم يستطع المأموران يصل الى اسباب المعركة ، وبالتالي الى علاج الحارة

- "هلكت الحارة لغيبا" غلام
- او غيبا رجل وهو الارجج
- بل هو غيبا الحارة وهو الاصدق . (٤)

(١) بيت سي' السمعة - ص ١٧٢

(٢) خمارة القط الأسود - ص ١٦

(٣) - - - - - ص ١٤٦

(٤) - - - - - ص ١٥٣

٢ - القتل الأجراسي :

أسبابه ونتائجه :

في محاولة لتقصي الأسباب ، التي حملت صابر ، بطل رواية " الطريق " ، على تنفيذ جريمته المزدوجة ، بقتل زوج عشيقته ، ثم قتلها هي ، يلجأ نجيب محفوظ الى استاذ جامعة ، وصحافي ، واستاذ بالخدمة الاجتماعية ، واستاذ علم نفس ، ورجل دين . فتبرز أمامنا الأسباب الآتية :

- ١ - استاذ الجامعة ، قال : ان " السبب هو الزواج غير المتكافي " ، بين الزوج والزوجة .
 - ٢ - كاتب يوميات الصحيفة ، قال : انه الفقر ، وان كريمة شهيدة لصراع الطبقات ، وفوارقها .
 - ٣ - استاذ بالخدمة الاجتماعية ، ناقش نشأة صابر في احضان تاجرة اعراض ، ورواسبها في نفسه .
 - ٤ - استاذ علم النفس ، قال : ان " صابر مصاب بعقدة حب الأم " ، فهو اولا وجد في كريمة بديلا عن امه ، فأحبها . وان لا شعوره أصر على الانتقام لأمه ، فقتل صاحب الفندق كمرز للسلطة ، ولطمع في مصادرة امواله ، كما صادرت الحكومة اموال امه .
 - ٥ - شيخ من رجال الدين ، قال : ان " المسألة في جوهرها ، مسأله ايمان مفقود " ، وان " صابر لو بذل في البحث عن الله ، وعشر ما بذل في البحث عن ابيه ، لكسب الله له جميع ما طمح اليه عند ابيه ، في الدارين " . (١)
- الأسباب اذن ، تنبع من عوامل اجتماعية ، وتربوية ، ونفسية : ان القوادح ، التي عيشها لابنها حياة غنية ، ورغيدة ، لم تقدر ان تهني له كرامة ، ولا عملا ، ولا سلاما . لذلك فهي تؤمله ، بأنه سيجد في كنف ابيه ، الاحترام ، والكرامة ، وسينحرر من ذل الحاجة الى أي

مخلوق ، بما سيبي له من عمل ، غير البلطجة ، او الحرime ، في آخر الأمر بالسلام .
أبوه ، الذي بعث حيا يم موت امه ، بعث صورة ، ووثيقة زواج ، فصار امكانيه ، وحلما ،
وصارا ملا . أبوه هذا ، صار يمثل الخلاص من واقع مرير ، الى حياة افضل . وفي سبيل الوصول الى
هذه الحياة الأفضل ، وفي اثناء الصراع من اجل هذه الحياة الأفضل ، وقعت الضحايا .

تمر الايام ، وهو يبحث عن أبيه ، وتكاد تنفذ نقوده ، وهو لا يزال يبحث . وما دامت
عشيته قد انقلعت عن لقاءه ليليا ، خوفا من زوجها ، صاحب الفندق العجوز ، الذي كتب كسل
املاكه باسمها بعد وفاته ، وما دام هو بحاجة الى ماله ، والى حسد ها ، فليقتله ، بالاتفاق معها
" اليأس لا يدع لنا سبيلا ، ولا وقتا للاختيار يا عم خليل ، حتام تغالب النعم الأبدى ؟ لماذا تصرّ
على جرى الى مصير محتم ؟ ما معنى ان تتمتع بمالك ، سالب حياتك ، وان تسقط اي بلا عقل ،
وان يصمت اي بلا رحمه ، وان تتعلق آمالي بازهاق روح ، خبرني عن معنى ذلك كله . " (١)

وينفذ صابر جزيته بحذافيره ، فيقتل الرجل وعونائ في فراشه ، بقضيب حديدى على رأسه .

ويسقط صابر ، يصبح قاتلا ، وتستحيل عليه منذ تلك اللحظة ، الحياة الشريفة ، فحين تأتية
الهام (الحب النقي) لتعرض عليه مد خراشا ، كرا من مال ، وتدعوه لحياة شريفة معها ، يهتف
بصمت " آه لو يقدر ان يرد الحياة الى عم خليل ، ويستيقظ من الكابوس . فلتبتعد الهام عنه ،
فهي ليست الا عذابا . أما كريمة فقد جمعت بينهما الجريمة برباط لن ينقص حتى الموت . " (٢)

ويعرف صابر ، من وكيل القنيل ، ان الخادم اتهم بالقتل ، بسبب السرقة ، وان للزوج
- عشيته - ، حياة ثانية مع زوجها الأول . ويستنتج انها استعملته للقتل ، كي تحتفظ
بالثروة ، لها ، ولزوجها .

(١) الطريق - ص ١٠١

(٢) - - ص ١٥١

ويصيبه جنون ، " اجل كان الحنون يعصف به عصفاً " . ويتوجه اليها ، وفي نيته أن يقتلها ،
لأنها دبرت قسمة جهنمية : " له الجريمة ، ولها وللرجل ، الثروة " (١)
وفي يأسه ، يهجم عليها ، ويخنقها . . . ويقبض عليه ، ويسجن .
وفي السجن يخبره محاميه ، أن اياه عرف ، ولكنه يظل مسافراً ، لأنه اتخذ الحب عملاً ،
ولن يجديه نفعا .
لا جدوى من أى شيء . فلقد ضاعت الحرية ، والكرامة ، والسلام ، والهام ، وكريمة ، ولم يبق
الآن حبل المشنقة .

٣ - شهداء وضحايا :

كان لاحتلال القوات البريطانية لمصر ، ضحايا كثيرين ، سقط بعضهم ، وهو يصارع الاحتلال باللريق المباشر أثناء المظاهرات ، وسقط البعض ، وهو يصارع للحصول على شيء من حقه ، فسي حياة معقولة ، بعد ان سلب الاحتلال — بالتواطؤ مع الاقطاع ، والاستقرار عليه الحاكم — كل حق له . والاثموزجان الصارخان لمؤلاء الضحايا ، هما فني احمد عبدالجواد ، وعبداساس الحلو .

فهمي ، هو ابن الثورة الوطنيه ، التي اندلعت سنة ١٩١٩ ، طلبا للحرية والاستقلال ، يشترك وهو طالب ، في توزيع المنشور ، الذي بعثه الوفد الى السلطان ، يطالب فيه باستقلال مصر ، ويشتمل غلبا بعد ان نفى الانكليز ، سعدا وامحابه ، الى جزيرة مالده ، ويلتقي مع رفاقه الشباب الغاضبين ، ويقررون الاضراب .

ولأن الشباب يأتون ، كما يقول سامي خشبه ، من مجتمع " ثل " تسعة قرون كاملة تحت اثقال التجهيل ، والافتقار ، والتجمد الحضاري ، والضياع القومي ، والقهر السياسي ، والفقر الروحي ، فانهم لم يعرفوا كيف يستعدون لصراع منظم من اجل الاستقلال " (١) ، مع انهم كلهم ، كانوا مهينين نفسيا ، والموت في سبيل مصر " سيات ان احيا او ان اموت ، الايمان اتون — الموت ، والموت اشرف من الذل ، فبنينا لنا الامل الذي هانت الى جانبه الحياة ، اهلا بصباح جديد من الحرية ، وليقض الله بنا هو قاض . " (٢)

ان المحاولات المتواصلة ، التي بذلت خلال قرون ، لترويض روح الشعب المصري ، وعقله ، واخضاعهما لنظم عقليه ، وفكريه ، تقوم في معظمها على النقل ، والخرافه ، او على الاستعلاء العنصري ،

(١) خشبه سامي — شخصيات من ادب المقاومة — مجلة الآداب — العدد السادس ، حزيران سنة ١٩٦٨ — ص ١٢

(٢) بين القصرين — ٤١٤

أو التزيف الحضارى المنظم ، هي التي دفعت بأهلين كثيرين ، لأن يمنعوا أبناءهم من اللبسة ، من الخروج في المظاهرات ، وأن يستعينوا على طرد الإنكليز ، بآية الكرسي ، وسورة قل هو الله احد ، التي تطرد الأشباح ايضا . (١)

ومن هؤلاء الطلبة ، فهمي ، الذى يتعرض لضغط شديد من والديه ، من امه السليبية الضعيفة ، وابيه المتسلط الحبار ، الذى يطلب منه ان يقسم على القرآن ، بأنه لن يشارك في الثورة . وهكذا كان على هذا الشاب ان يناضل على جبهتين ، جبهة الاستعمار المتمثل بالاحتلال ، وجبهة الرجعية المتمثلة بالعائلة وتقاليدها ، فالعائلة تؤمن بأن الإنكليز لا يغلِبون - وهذا بفضل عقدة الاستعلاء العنصرى - لأنهم من طينة غير طينة البشر ، اسمى وأرفع .

ان السيد احمد عبد الحواد ينصح ابنه عن ارتد الشيخ متولي صانع الأُحجبه ، ان يبتعد عن موارد التهلكة ، فربك القادر وحده على اهلاك الإنكليز . (٢)

ويرد عليه فهمي " ليس ثمة خاروراء ما نعمل ، غيرنا يقوم بأعمال أجل ، كالاشتراك في المظاهرات . وقد استشهد منهم كثيرون ، ولست خيرا منهم ، ان الجنازات تشيع بالعشرات معا ، ولا عتاف فيها الا للوطن ، حتى اهل الضحايا يموتون ولا يبكون ، فما حياتي ، وما حياة اى انسان . (٣)

قد تكون هناك فئة ، تهتف وتزغرد للموت ، الا ان عائلة فهمي - بالتأكيد - ليست منها . فهي من طبقة التجار ، الذين سيطرت على حياتهم القيم الاجتماعية ، التي خلقت بالفعل تناقضات بشعه بين علاقاتهم الاجتماعية الجديدة ، وما يحرصون عليه من تقاليد . (٤)

(١) بين القصيرين - ص ٢٥٤

(٢) - - - - - ص ٥٤٤

(٣) - - - - - ص ٨٨٤

(٤) شكرى ، غالى - المنتمى - ص ٢٩

فليس مستغربا اذن ، ان تصاب الام بالهلع ، والتفجع ، حين تعرف ان ولدها اشترك في المظاهرات سرا ، لقد اشترك في المظاهرات ، لأجل استقلال الوطن ، ولكن مالم ي ولا استقلال الوطن " لقد ولدتم جميعا في ظل حكمهم ، وما زلنا احيا ، بحمد الله " والحق انه لم يكن متوقعا من امرأة ، عاشت حياتها عبده ذليلة لزوجها ، ان تفهم او تتحسس حاجة وطنها للحرية والاستقلال . وطالما ان حاجاتها ، وحاجات بيتها المادي ، مؤمنه ، فلن تحيد عن ركب المظهد يسسن السليبين .

وربما كان لموقف الابوين السلي من اشراك فمي الفعلي في المقاومة ، اثر في مثله ، فسي اثناء مظاهرة تأييده سلميه ، سمحت السلطة بنياهما ، ليعرب الشعب عن ابتهاجه بالافراح عمن سعد ، وخرج فيها الشاب بموافقة والديه ، اعتراه احساس بأنه دون الكثيرين من اترانه ، جرأة وأقداما ، " ما انا الا محارب اعزل ، ولئن فاني الرائع من اعمال البطولة ، فحسي اني لم اتردد مرة واحدة ، عن الالفاء بنفسي في اتون المعركة " (١)

كان الشاب يعزى نفسه ، المطلوب منها ، ان تابع سلبية الوالدين ، لكن نفسه كانت تواقسة لعمل بطولي ، لذلك فانه عندما انقلبت المظاهرة السلميه ، الى مظاهرة دامية ، وتفرق الجمع الهائل لدى دوى الرصاص ، ظل هو واقفا يتحدى الموت ، امام معسكر الازكيه .

ولم يفت القتل والارهاب ، من عزيمة المصريين على الثورة ، من اجل الاستقلال ، وكما سقطت منهم الضحايا ، سقطت الضحايا من قوى الاحتلال .

ففي رواية " ميرامار " ، تكون ماريانا ، صاحبة البنسيون ، هي ارملة ضابط انكليزي ، قتل في ثورة سنة ١٩١٩ ، يتأمل عامر وجدى — الصحفي العتيد — ، صورته متسائلا " ترى من قتلك وبأى سلاح قتلك ؟ وكمن من جيلنا قتلت قبل ان تقتل ؟ جيلنا العتيد ، الذى فاق الاجيال جميعا فسي غزارة ضحاياه . " (٢)

(١) بين القصرين — ص ٥٦٦

(٢) ميرامار — ص ٢٥

سنة ١٩١٩ ، قاتل المصريون على ارض مصر ، من اجل التحرر ، وظلوا يقاتلون الى ما بعد ثورة ٢٣ يونيو سنة ١٩٥٢ ، وامتدت رقعة الأرض التي يقاتلون عليها ، الى ابعد من مصر ، ومن اليمن يلتقط نجيب محفوظ ، لحظة مأساوية ، تمثل موت الجندي المصرى هناك ، في اقصوصة " ثلاثة ايام في اليمن " ، من مجموعة " تحت المظلة " .

شاب موظف ، تجند في سلاح المظلات دون تدريب ، والتحق بالقوات المقاتلة في اليمن ، دون ان يودع امه ، او خطيبته . كان موضع ثقة رئيسه ، وطول عمره وهو من المتوكلين على الله ، المعتمدين على دعاة الوالدين .

ويخوض المعارك بقليل من الخبرة ، وكلما استشيد زميل له ، فكري اهل الشهيد بمصر " يئال الميت حيا في وجدان اهله بمصر ، حتى يبلغهم خبره . وفكرت فيك يا مصر . بكل وحداني الحزين . من فوق قمة الجبل الأسود ، وتحت سيل من الماز المنهمر ، فكرت فيك يا مصر . " (١) ويموت هو الآخر ، في احدى المعارك . .

ان دخول الجندي الى المعركة ، بغير تدريب ، متوكلا على الله ، ومعتمدا على دعاة الوالدين ، ورضا رئيسه المبايعه ، ثم المنولوج الداخلي ، الذي جرى على لسان الأديب الضيف ، المرافق للجنود في اليمن ، والذي قارن فيه ، بين احاديث الأدباء المصريين الفردييه ، وكلماتهم ، امام الحمير ، وبين تجوالهم في السوق ، وموقفهم وراء المنصه ، ووصوله في تأملاته ، الى ان هناك شيئا ما ينقصنا ، لعله محو التناقض ، بين ما يقال وما يجب ان يقال " (٢) كل هذا ، يجعلنا نعتقد ، بأن نجيب محفوظ ، يثور على الوضع الذي أدى الى هزيمة الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ . ولولم تكتب هذه الاقاصيص ، في الفترة بين اكتوبر وديسمبر سنة ١٩٦٧ ، لحسبنا انه يرهص بالهزيمة .

(١) تحت المظلة — ص ١١١

(٢) — — — — — ص ١١١

ويؤكد اعتقادنا ، أجابته عن سؤال ورد في مجلة " مواقف " ، حول ثورة الأدب بعد الخامس من حزيران ، ان يقول :

" ليست ثورة الأدب منفصلة عن المصنع ولا عن الحقل ، ولا عن المكتب السياسي . انها متصلة مع الثورات كلها (ثورة العامل والفلاح والسياسي) . وهي تبدأ في قلبه أولاً ، وهي تفاعل مع الناس ثانياً ، تبدأ في احساسه النبؤي الطبيعي ، الذي لا اعتقد ان ثنائياً يستحوذ - هذا الاسم ، خال منه ، لأنّ الفنان الأصيل كالحيوان ، كالعصافير والفيلة والنسور التي عندما تحسّ بخار محدد تصدر بالغيرية اصواتها خاصة معلنة للملأ ، انّ خارا ما آت . والفنان اذا لطم يكن عنده هذا القدر من الاحساس العام الذي يجعله ويحعل ادبه في مستوى النبوءة ، متحمساً دعوه الى يمين او يسار او امام ، تكون اجهزته كلها مختلة . من هنا تتألق ثورة الأدب : انما النبوءة والنداء . ان على الأدب ان يعكس اثر الخامس من حزيران بشكل ثوري ايجابي كسفي . يحرص بعمق عيوبنا التي أدت الى هذه النكسة ، وفي الوقت نفسه ، يثير الدم ويدفع الأتسسان العربي الى الخروج من هذه الدوائر الهزيمة في الحرب هي نتيجة لعوامل كثيرة جدا بعضها نفسي ، بعضها اجتماعي ، بعضها سياسي . تفاعل العوامل كلها مجتمعها ، فيما بينها ، انتدسى في تكثيف العمل الأخير واعطائه مكانته في التاريخ . الهزيمة لم تكن صدفة . . . انا لا اتذكر ان هزيمة حصلت في التاريخ كان يمكن ان يحل محلها نصر . . (١)

لكل فترة ، من فترات النضال السياسي ، ضحايا وشهداء ، دمي عبد الحواد ، كان ضحية ثورة سنة ١٩١٩ ، والجندى المصرى في اليمن ، ضحية الفترة التي ارمست بهزيمة حزيران ١٩٦٧ .

(١) نجيب محفوظ - الأدب ، الحرية ، الثورة - مجلة مواقف - العدد الأول ، تشرين ثانى ،

وعباس الحلو ، هو ضحية الحرب العالمية الثانية ، فقد سقط صريعا ، بأيدي الحنود الإنكليز .
وتجسد رواية " زقاق المدق " ، مأساة الشعب المصري ، أبان الحرب العالمية الثانية ، حيث
نهب الأعداء ، وأفساد الذم ، وطبقه المصور ، الذين اثروا على حساب المعسكرات البريتانية ،
فكونوا رأس ماليه ، انتهازيه ، جديدة .

يعود عباس ، الى الزقاق ، بعد ان عمل شهورا مع الإنكليز ، كي يوفر المال ، ويتزوج من
حميده . وكان عباس ، قد اقل دكان الحلاقه ، باغرا ، من حين كرمه ، الذي حنه على العمل
بمعسكرات الجيش الإنكليزي : " عليه بالجيش الإنكليزي ، كنز لا يفنى " . وكنز الحسن البصري .
ليست هذه الحرب بنقمة كما يقول الجهلاء ، ولكنها نعمة النعم . . . وسوف تاول الحرب
عشرين عاما . (١)

يصف غالي شكري ، عباس الحلو ، بأنه مثال الإنسان المصري الوديع المسالم ، الذي
يلتمس الحب ، ممزقا بين الأحاسيس الرومانسيه ، والشهوات الواقعيه ، وكرامته تأبى عليه أن
يضيع بين هذه وتلك . (٢) ، يعود من المعسكر ، فيكتشف ان حبيبته اختفت ، وحين يعرف
ان آخر مرة شوعدت فيها ، كانت برفقة افندى ، يعتريه غضب ناري ، ومقت نهم ، غير ان شعوره
بالخيبة — الناشئة من ذهاب الأمل وتمسغ المعبود في التراب — كان اقناع من الغيرة نفسها ،
وتعتريه فكرة الانتقام ، بلعن القلب الذي غدره . الا انه بعد أن تعدأ ثورته ، يرسب فسي
قرارة نفسه ، حزن عميق ، ويأس مدلبم .

وينصحه اهل الزقاق ، بأن ينسى ما أصابه ، ويعود الى عمله ، ويجمع المال ، ويفتح دكانا
جديدة . ولكنه يأبى ان يتنازل عما اعتبره حقه ، حميده ، من حقه ، فهي بنت حبه ، وهي التي

(١) زقاق المدق — ص ٢٤

(٢) شكري ، غالي — المنتمي — ص ١٣٩

وعده بالزواج ، ومن اجلها ذهب الى معسكرات الانكليز ، وجمع المال بالذل ، والعرق ، والجهد ،
واذا لم يستطع الحصول عليها حيه ، فليقتلها ، حتى لا يأخذ احد حقه .

ويتشجيع من ابن حيه ، حسين كرشه ، يذعбан الى الحانه التي تعمل فيها حميده ، عاقره .
ويراها عباس في جلسة شائبة بين نفر من الحنود . كانت تجلس على كرسي ومن ورائها حنودى .
واقفا يسقيها خمرا من كأس في يده ، وقد مدت ساقينا على حجر آخر ، يجلس قبالنا ، وحف باسم
آخرون يشربون ويعربدون .

وتصرخ حميدة به ، ان يغرب عن وجهها ، بعد ان ناداها ، فتفعل به غضبتها ، وصراخها ،
فعل النفط بالنار ، فيجن جنونه ، ويختفي من نفسه ما طبع عليه من تعيب ، وتردد ، ويحد منها
عانه في الايام الثلاثة الماضية من قهر ، وعذاب ، وقنوط ، ثقباً في رجل نفسه .

يتناول عباس ، بعن زجاجات البيرة الفارغة ، ويقذفها صوب ا ، فتصاب في وجهها ، ويتفجر
الدم غزيراً من فمها ، وانفها ، وذقنها . وعند ما ينظر عليه الحنود الغائبون ، كالوحوش الكاسره ،
وتتطاير الكلمات والركلات والزجاجات . وحسين كرشه ، واقفا مقبور ، مغلوب على امره ، لا يبرى
كيف يشق سبيله الى صاحبه ، وسط اولئك الحنود الكواسر القاتلين . وتتقاذف الايدي والارجل ،
عباس الحلو ، وهو كالكره ، لا يملك للقضاء دفعا .

يموت عباس ، يقتله صراعه ضد قوى الاحتلال ، والانتمازيه الرجعيه ، يقتله ايمانه بأن الله
حقوا يجب الدفاع عنها . وحين يعود حسين كرشه ، ويشيع في الحي ، ان عباس الحلو ، قد قتله
الانكليز ، يبكي عم كامل ، شريك عباس في دكانه ، بكاء مرا ، وينتحب كالانفال .

الا ان سليم علوان ، المصاب بالذبحة الصدرية ، يكون اشد اعل الزقاق تأثراً ، لا على الفقيد ،
ولكن نزعاً من الموت ، الذى اقتحم عليه الزقاق . فأشار مخاوفه وخاعف آلامه ، فعاودته افكاره

السوداء ، وتصوراته المريضة ، وأخيلة الاحتضار ، والموت ، والقبر ، التي انبكت اعصابه .
أهل الزقاق ، مشغولون بتأمين حياة معقولة لهم . بعضهم يذهب إلى معسكرات الإنكليز .
وبعضهم ينبش القبور ، ويسرق أسنان الأموات . وحيدة تختار الدريق القصير ، لريق العنبر .
والثرى الوحيد ، سلم علوان ، يعيش في خوف دائم من الموت .
صورة انسانية ، واقعية ، رسمها الفنان ببراعة ، وأنهى الرواية بحقيقة بسيطة ، وهي
أن المجتمع يظل يسير دون الاكتراث بضحاياه " انداحت هذه الفقاعة أيضا كسوابقها
واستوصى المدق بفضيلته الخالدة في النسيان وعدم الاكتراث " . (١)

٤ - موت العاشق الشاب :

الأسباب :

- أ - استهتار الشباب بالمرض لأجل اللهو
- ب - الخوف من فقدان الوظيفة
- ج - الخوف من هز المجتمع وشماتته
- د - الخوف من فقدان الحبيب

رشدی عاکف ، شاب من اسرة متوسطة ، يعمل موظفا صغيرا في البنك . يصاب حين اشتداد
البرد ، بعد انصرام نوفمبر ، بالانفلونزا ، فلا يعبأ بوعكات البرد ، ويكتفي بلبس ائسراف
"الأسبرين" ، اذا اشتد عليه وجع الرأس .

ويشتد عليه المرض ، فيمنحه طبيب المصروف ، اسبوعاً • وتدهور صحته بسرعة مخيفة ، فينصحه
أخوه ، ألا يفرض في صحته ، فلم يعد جسمه يتألم ، لأنه يكلفه ما ليس في وسعه • لكن رشدي ،
لا يعبا بنصائح أخيه ، ويعتبر الأسبوع الذي قضاه في الراحة دون لعب ، ولعب ، ومطبات ، اسبوعاً
ضائعاً هدرًا ، فيعود لحياته العادية : سهر ، وشرب ، ولعب ، ونساء • وتكون النتيجة ، إصابة
رشدي بسعال حاد ، يرافقه تدهور عام في صحته وقواه •

وفي المصروف أثناء العمل ، يصبق رشدي في منديله دما ، ويصيبه الذعر والارتياح ، ثم يسد سر
المنديل في جيبه ، خشية افتضاح أمره ، وذهب إلى أبيب مختفرا ، بعد أن يستولي عليه القلق
والانزعاج " وكان سمع مره صاحباه يقول : أن السل داء لا برئ منه . (١)

يتأكد للطبيب ، بعد التصوير بالأشعة ، أن رثنى مصاب في رثته اليسرى ، وأن عليه بالغذاء الجيد جدا ، والراحة التامة ، والهواء النافذ النقي ، وكل أولئك متوفر في المصححة ، وينصــــــــــــــ

بالذهاب الى حلوان دون توان .

ويسأل رشدي ، وقد أصابه طلع ويأس ، كم من الوقت يستغرق العلاج ، وحين يعرف انه ستة اشهر ، ينقبض صدره ، ويوقن ان هذه المدة تقضي عليه حتما بفقد وظيفته * وغدا اذا ذاعت الحقيقة وعلم بها الجيران فقد فاته كذلك . * (١)

ويقرر الشاب ، ان يخفي مرضه عن الجميع ، فلا يعلم بسرّه انسان ، وبذلك يطمئن على وظيفته وفاته . لذلك يرفض فكرة المصح ، ويقرر ان يستشفى في البيت ، ولكن بغير الطريقة الطبيه . انسابنا الدكتور ، فالدكتور اشار عليه ، بالألا يخادر فرائمه . مع العلاج الطبي ، مدة ستة شهور . وبالألا يتزوج الا بعد علم ونصف من تمام البر .

وأما هو ، فيظل يعمل في وظيفته ، لقد أقنع أخاه ، انه بوسعه ان يظل يعمل ، على ان يرتاح في أوقات الفراغ ، ويتغذى جيدا ، ويأخذ بعين الحقن * ويتم الشفاء . بأذن الله بغير ضياع مستقبلي وبغير فضيحة . * (٢)

ويحاول احمد - الأخ الأكبر - ان يقنع رشدي ، بأن ليس في الأمر فضيحة ، وان المريض بلائ من الله ، وكل انسان عرضة للأمرار . لكن رشدي ، يصر على التستر مع اخذ الاحتياطات ، كان يأكل في اوان خاصة ، ويغسل الحمام والمغسلة بماء . كل ذلك ، حتى لا تدرى امه ، وبالتالي اسرة فاته ، فيخسر حبيبته ومستقبله .

وحتى حياة الليل والسهر والعريضة ، لم ينقلم عنها ، خوفا ان يشعر اصحابه وزملاؤه بما به ، فيشيع امره ، ويتعد عنه هؤلاء ، ويخسر وظيفته وفاته . * هذا الى جانب ميله الطبيعي للذات ، وميله الاصيل ، للامل ، والتفاؤل ، والجسارة ، والابتناسم . * (٣)

(١) خان الخليلي - ص ٢٠٣

(٢) = = - ص ٢٠٧

(٣) = = - ص ٢١٩

ويظل على عهده ، من موافاة فتاته ، كل صباح ، في طريقها الى المدرسة ، حتى لا يشعرها بما به . الى ان تسوء حالته كثيرا ، ويمرض ، لأشارة الطبيب بالذهاب الى المصحة . لكنه يظل مشترطا الا تعرف حبيبته . وينقل في اول مارس ، ويانتقاله ، تذوق العائلة لعم الحزن الممزوج بالرحاء والخوف ، وتبيت ليلتها الأولى في غم . الأب ، تلوح في عينيه دوائر شاردة ، والام ، تبكي حتى تدمي عيناها ، والاخ احمد ، يحاول ان يخفف عنهما بحديث الرحاء والامل ، لكنه في الحقيقة بحاجة الى من يخفف عنه . (١)

ويتسلم احمد ، رسالة من رشدي ، ينعي له نفسه فيها ، ويطلب منه قضاء ايامه الأخيرة بينهم .

ويرجع رشدي الى بيته ، ويلتم فراشه ، بينما تنقطع حبيبته ، ووالداها ، عن زيارته . وتنقل حجرة نوال ، بعيدا عن نافذة رشدي ، ويحال بينها وبين رؤيته ، بضغطة من اهلها ، فيحزن ذلك رشدي كثيرا ، لظنه انهم قد عرفوا حقيقة داءه " اشع شي " في هذه الدنيا ، حفاً ، عديسوق بغير ذنب ، أو ان يكون ذنبه ، ان الصحة جفته . . ان " الخيانة قبيحة " .

وأما احمد ، فيقول لنفسه محزوناً " رباء الا كيف جفته وقد راح ضحية لها . " ونوال ، تعتبر نفسها غادرة " ليس المرض بالشر الوحيد في هذه الدنيا ، فالغدر شر من المرض ، ماذا يظن بي ؟ بل . . كيف ادفع عن نفسي امامه وامام الناس ؟ " (٢)

الناس ، المجتمع ، الحاجة ، الغريزة ، التسلق ، تلك هي العوامل التي وصلت برشدي ، الى القبر . يموت رشدي لأنه يرفض الذهاب الى المصحة ، خشية ان يفقد وثيقته ، وألا يكفي مسا تبقى معه من نقود ، للقامة هنا ، في الدرجة الثانية " ليس في لوقي الآن ان اعود الى الدرجة الثانية ، ومحال ان ارضى بالانتقال الى عنابر الدرجة الثالثة . " (٣)

(١)	خان الخليلي	-	ص ٢٢٤
(٢)	-	-	ص ٢٤٤
(٣)	-	-	ص ٢٥٠

لكن نجيب محفوظ ، لا ينسى وهو يسوق إلينا هذه العوامل مجتمعة ، العامل القدرى ، الذى دعا رشدى الى ان يطلب القرآن ، وهو على فراش الموت ، ويغروعو في حشرة القرآن ، من آلامه ، ومخاوفه ، ويلسوز بالأستسلام ، والتسليم ، والصبر ، والتوكل على الله ، ويحد ارتياحا في الأذعان المظلمين الى ارادة الله ، وقضائه " يا رب ! اذا كانت مشيئتك قد قضت بأن ينتهي بهذا الداء أجلي ، فاسألك الرحمة بالتعجيل به " . (١)

ويموت رشدى في الليل ، ويستيقظ احمد ، الساعة الخامسة صباحا ، على حركة في البيت ، وقبل ان يخطو خطوتين في الدهليز المفتي الى حجرة رشدى ، يفتح باب الحجرة بقوة ، وتبدو امه على عتبته ، وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها ، كمن يستغيث ، ثم هوت براحتيها على خديها ، تلطمهما بعنف وجنون .

الموت ، الذى تضافرت العوامل الاجتماعية النفسية ، وقضاء الله وقدره ، على حدوثه ، يورث بحدوثه آثارا اجتماعية ونفسية . . ويتداخل التأثير ، والتأثر ، بين الموت والمجتمع . تداخلا متلاحما ، وتظل الدائرة تدور ، والخطوط تتلاقى الجرافها .

٥ - الموت بحادث :

سئل نجيب محفوظ ، ما هي فكرتك الكاملة عن الموت ؟ فقال : " الموت هو النهاية .. هو الفناء " (١) وفي رواية " أولاد حارتنا " ، يؤكد على لسان ابي الله فكرته عن الموت ، حين يتحاور عرفه مع الناظر :

- " لماذا نموت يا عرفه ؟
 - كلنا اموات وابنساء اموات .
 - لست في حاجة الى تذكيري بما قلت ..
 - ليطل عمرك يا سيدي ..
 - طال او قصر فالنهاية هي تلك الحفرة التي تعشقها الديدان .. الموت ..
- الموت ، دائما الموت ، يجيء في اية لحظة ولائفه الاسباب أو بلا سبب على الاطلاق (٢) .

اذن ، فالموت قدر حتمي ، نهاية لا بد منها ، تحصل بسبب وبلا سبب ، بذنب وبدون ذنب . وفي هذا الفصل نحاول ان نبحث عن الاثر الاجتماعي الذي يحدثه الموت الناتج عن حادث عرضي ، صدفة ، أو قدر .

ويبرز هذا الاثر بوضوح ، في رواية " ثرثرة فوق النيل " ، اذ ينهي موت رجل ، بحادث سيارة عرضي ، حالة اجتماعية ونفسية ، لها صفة الاستمرار . الحالة ، هي اجتماع مجموعة من افراد المجتمع ، بينهم الموظف ، والصحافي ، والممثل ، والكاتب ، والمحامي ، والمترجم بوزارة الخارجية ، والمسيرة المزواج ، والباله ، في عوامه يقيم برعايتهما نوبسي المعن في السن ، وفي الايمان ، وفي القواد .

(١) شوشه ، فاروق - مع الأدباء ، نجيب محفوظ - مجلة الآداب - العدد السادس ، حزيران سنة

١٩٦٠ - ص ١٩

(٢) أولاد حارتنا - ص ٥٣٣

يجتمعون كل ليلة ، على غزوة حشيش ، ولا هم لهم سوى العبث والسطلان . أى ان " هذه المجموعة ، حاولت فصل نفسها عن المجتمع ، بهذه الاجتماعات الليلية ، المتكررة بنفس الطريقة ، ونفس الترتيب . فبات من الطبيعي ، ان تتشابه شخصياتها ، رغم الفروق الأساسية فيما بينها . فالاختلافات ، تختفي في حوامخدرات ، الذى فرغ عليهم لريقة غريبة ، في الكالم ، وفي السلوك . وفي رأى الدكتور عبد القادر القط ، ان الحادثة التي وقعت عرضا ، وهي قتل رجل ، انشاء قيادة السيارة ، وهم فيها يعبثون ، دون ان يبلغوا عن الحادث ، " انما هي جريمة ، وهذه الجريمة تدل على ان هذه الجماعة ، وان بدت منفصلة تماما عن المجتمع لأنها لا تمارس حياته ، فانها ما زالت مرتبطة ارتباطا متينا بهذا المجتمع ، حين عدت على قيمة اخلاقية من قيم المجتمع الذى تعيش فيه ، فقللت هذه الجريمة على ضامرها كما تثقل على ضمير أى شخص عادى ، وانطردنا الى التفرقة فيما بعد . " (١)

ولو تتبعنا الاثر الذى خلفه هذا الحادث على موقف انيس ، والشخصية الرئيسية في الرواية ، وعلى مثله وحياته ، لوجدناه ذا شقين ، الشق الأول : اجتماعي مأساوي ، انه فقد وليفته ، لاصابته بالارق من شدة الصدمة ، ولا غطراره للنم في المكتتب تمويلا ، مما دفعه بمديره ، الى احالته للنيابة الادارية ، بعد جدل بينهما فقد فيه انيس ، سيارته على نفسه . أى ان أنيسا أصبح متشردا .

والشق الثاني : هو يقظة انيس الضميرية ، وهو الغارق في الحشيش والجنس ، وانقلابه من موقف العابت ، الى موقف الجاد . فبعد ما طلب فنداح قموته المعهود بالحشيشه من عم عبده ، وبعد ما اعتبر الحادث لا اهمية له ، " علمتم من الحبسه فيه " ان به ينقلب ، بعد ان صفعه

(١) لليفه الزيات ، عبد القادر القط ، شكرى عياد - ندوة حول ثرثرة فوق النيل - مجلة الآداب ، العدد العاشر ، تشرين أول ، سنة ١٩٦٦ - ص ١٣

رجب ، — وهو الذى كان يقود السيارة — ، وصفه لأنه عثر بحبه هو وسامره — الصحافي — الجاده — اذ به ينقلب الى انسان عنيف ، وجاد ، يدافع عن نفسه ، وعن العدالة . " كل شيء يهون الا جريمة القتل ، ويجب ان تتحقق العدالة . " (١)

ومكذا يكون حادث القتل ، الذى تم في آخر الرواية ، هو الذى غير هذا الانسان ، من كائن سلمي الى كائن ايجابى . وعلى لسانه ، ينهي نجيب محفوظ ، رواية " ثرثرة فوق النيل " . بهذه العبارات :

" أصل المتاعب مبارزة قرد : تعلم كيف يسير على قدميه فحرريديه ، وهبط من جنسة الفردوس فوق الأشجار الى أرض الغابه . وقالوا له عد الى الأئمة اروا لا أبقت عليك الوحوش . فقبض على غصن شجرة بيد وعلى حجر بيد ، وتقدم وحيد بصره الى البرق لا نهاية له . " (٢)

ويفسر احمد عباس صالح ، هذه العبارات بقوله : " ان الغشول الى المعرفة او النزوع الغريزي اليها ، هو الذى دفع القرد الى تلك المغامرة الغدة التي انتهت بالحضارة الحديثة ووصلت الى عصر الفضاء ، وان مشكلة العيش هي التي حركت هذا القرد ، وهي التي علمته كل شيء وهي التي تعلمه حتى الآن كل شيء . " (٣)

وموت الرجل المجهول ، وما خلفه من صراعات بينهم هبوطا وصعودا ، هو الذى عثرى شخصيات المجموعة : بالنسبة لعلي السيد ، الناقد الفني المعروف ، " ليس الحادث المؤسف بقضية وطن ولا مبدأ ، المسألة بكل بساطة مجهول قتل خطأ ، هناك مسئولية لا انكر ، حماقة مألوفه — ويا للأسف ، ولكن هل نهمون عليك جميعا ، هل تريدون حقا التضحية بسعادتنا وكرامتنا ، فليس سبيل لا شيء . " (٤)

(١) ثرثرة فوق النيل — ص ١٨٨

(٢) — ص ٢٠١

(٣) صالح ، احمد عباس — قراءة جديدة لنجيب محفوظ (المشكلة الميتافيزيقية) — مجلة الكاتب —

العدد ٦١ ، ابريل ، سنة ١٩٦٦ — ص ٩٨

(٤) ثرثرة فوق النيل — ص ١٨٢

بالنسبة لسماره ، الصحافيه الجاده ، التي كانت تصدر دائما على الأبلاغ عن الجبهه ، " مات فسي " جانب لا يعوّض ، نحن قتله ولن اصلح لشيء " . (١)

وأما مصطفى راشد ، المحامي ، فقد عرّى نفسه بهذه العبارة " لن يبعث الرجل حيا إذا بلغنا النياية ، ولن يفيد من تضحياتنا " . (٢)

وأحمد نصر ، الموظف الخطير ، " لقد ركبنا الشيطان فلم يعد لنا من وجود " . (٣)

ووقف رجب في لحظة غضب يعلن " تتوهمون انني وحدي المسئول ، ولكنكم هربتم معي " . كلا يا أونساد ، اني ذاهب ، سأذهب الى النقطة بنفسى ، اني اتحدى الخراب والموت والشياطين " . (٤) ولم يقل لنا نجيب محفوظ ما اذا كان رجب قد ذهب أو لم يذهب ، لكن الواضح ان كل شيء في حياة المجموعة قد تغير ، وافصح كل واحد عن موقفه الحقيقي في الحياة .

وفي اقصو قصيرة ، من مجموعة " خمارة القط الأسود " ، بعنوان " المتهم " ، نواجه موقفا مناقضا من حيث الفعل ، ولكنه مطابق من حيث الاثر .

فالاقتصو تقول ، ان انسانا ما قد دهن بحادث سيارة ، واتهم رجل برون اتى للمساعدة ، والقبر على الفاعل ، اتهم بأنه هو القاتل . وتتابع احداث الاقصو ، انبثاقا من هذه التهمة ، فلكي يدافع الرجل عن نفسه ، امام غضبة الفلاحين القادمين للانتقام منه ، يضطر لاشداس مسدس ، ويصبح فيه الفلاحون :

- أتريد ان تقتلنا كما قتلت ؟ -

- | | | | |
|-----|-----------------|---|-------|
| (١) | ثرثرة فوق النيل | - | ص ١٧٧ |
| (٢) | " " | - | ص ١٨٢ |
| (٣) | " " | - | ص ١٨٧ |
| (٤) | " " | - | ص ١٩٥ |

وعبثا يحاول الرجل اقناعهم بأنه ليس الحاني . فهم في ادعائهم قد رأوه بأعينهم " رأينا كل شيء " وحين يأتي البوليس للتحقيق يشهد الفلاحون نده " رأيناه بأعيننا وضعناه مــــن الهرب : (١)

ويوقفه البوليس ، بانتظار نتيجة التحقيق ، وبانتظار العملية التي تجرى للمضحية .
الآن الشاب يموت ، ويتحادل الموقف مع الضابط ، ويفقد اعصابه ، ويتممه بأنه يؤخر حضور النيابة ، وبأنه يمنع القانون . فيهدده الشابا بوضعه في السجن ، ويتممه بأنه يدعي القانون ، ويبلغه في النهاية ، بشماتة وحقد ، أن المصاب مات متأثرا بجراحه .

الحادث وقع ، ومات الرجل ، ومع انه لا دليل له الحلاقا في موته ، ومع انه يوقفه ، أراد بشهامة : ان يجد المساعدة للحريج ، وان يفسح للقانون مجراه العادل ، ووجد نفسه متهمــــا سجيناً . لولا الكذب والنزور لكنت الآن في بيتي آمناً .

٦ - موت الزعيم :

في مثل المرحلة التاريخية ، التي اختارها نجيب محفوظ ، بيئة للثلاثية ، حينما عايش الشعب المصري ، تجربة الشروع في النضال من اجل استعادة حريته ، يطرد الاحتلال ، والتصميم على الاستقلال ، بيد وموت الزعيم ، الذي بثّ روح المقاومة في الشعب ، والذي نفي وعذب لأجل مبادئه ، بيد و كارثة اجتماعية . إلا أننا لم نلمس هذه الكارثة ، بردود فعلها العملية . وقد يعود ذلك ، الى سبب يورده سامي خشبه ، في مجلة الآداب ، حين يصف "عائلة احمد عبد الحواد ، عائلة سلبية ، يخيم عليها جو الفتر ، والسذاجة ، وعدم المبالاة ، فالأب جبار متعال ، بالسفح القسوة ، لا تشغل عقله غير امور تجارت ، أو بيته ، أو فسقه . والأم مستضعفه ، سلبية . مقهورة أمام زوجها ، تعمل لحسابه أمام ابنائه ، ولحسابهم أمامه . تكاد الخرافة ان تكون هي لباب تصورهما عن عالم الروح والعقل . ثم اشقاء ، تتوزعهم مشاغل الزواج أو المرح - المشروع وغير المشروع - والثروة التي بلا نهاية ، والحزن على الأموات .

والعنصر الثوري الوحيد في العائلة فهمي ، استشهد قبل موت الزعيم ، أما كمال ، بطول الثلاثية ، فقد انشغل بقضايا الفكر المجردة بعيدا عن همم الواقع ، أو متباعدا عن الأصول الواقعية ، لقضايا الفكرية . (١)

والسبب الثاني في رأينا ، عنوان سعد زغلول ، مات ، وعائلة عائشة تحضر ، وقد لمسنا هذا السبب ، في ردة فعل كمال ، إلا أنه في أي حال ، لم يكن يتوقع من كمال ، ردة فعل مختلفة . أن نجيب محفوظ ، يلتزم له العذر في هذا التبرير " لو في غير هذا الطرف الحزين ما درى كمال ، كيف يتحمل النبأ ، ولكن المصائب اذا تلاقحت تحدى بعضها بعضا ، هكذا ماتت جدته في اعقاب

(١) خشبه ، سامي - شخصيات من أدب المقاومة - مجلة الآداب - عدد ٦ ، سنة ١٩٦٨ - ص ١٣

مصر فسمي فلم تجد لها باكيا . اذن مات سعد : الخفي والثورة والحرية والدستور — مات صاحبها ، كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه وتربيته . (١)

وأما موت الملك فؤاد ، وقد حصل اثناء احداث رواية " السكويه " ، — وكان الاخفاد ، قد شبوا وانضموا الى الحركات الفكرية ، والسياسية ، والاجتماعية — فقد احدث املا بمستقبل افضل لمصر . وفي حوار الاخوين ، عبد المنعم ، والاخ المسلم ، واحمد ، الشيوعي ، نلمس — اذا الامل الواحد برغم تباين العقيدتين :

" احمد — حدثني عن شعورك . .

عبد المنعم — لا ادري ، الموت رهيب ، فلما بالاك بموت ملك . وكان طريق الجنازة ، مكتظا بالناس بصورة لم اشهد لها من قبل ، انا لم اشهد جنازة سعد زغلول ، حتى استطيع المقارنة بين الجنازتين ، ولكن يبدو لي ان اكثر الناس كان متأثرا على نحو ما ، وبعض النساء يكنين ، نحن المصريين قسم عاطفيون .

احمد — لكنني اسالك عن شعورك انت ؟

عبد المنعم — لم اكن احبه ، وهذا اعتقنا جميعا ، فلما لم احزن ، ولكنني لم اسر كذلك . تابعت النعش بعين من لا قلب له ، غير ان فكرة الجبار في النعش أثرت في ، لله الملك جميعا ، هو الحي الباقي فليت الناس يعلمون ، غير انه لو مات الملك قبل ان تتغير الحالة السياسية التي كانت قائمة لزغرد كثيرون . . وانت ما شعورك ؟؟

احمد — انا لا احب الطفلة ، آيا كانت الحالة السياسية . ثم ان حكاية منظر الموت ، ورومانطيقية مريضه ، تمنيت ان يمتد بي العمر حتى ارى العالم وقد خلص من كافة الطفلة .

عبد المنعم — فاروق غلام ، ليس له دهاء ابيه ولا نابه الازرق ، فاذا سارت الامور سيرا حسنا ، فنجحت المفاوضات ، وعاد الوفد الى الحكم ، فسوف تستقر الامور ، وينقضي عهد المؤامرات . المستقبل حسن فيما يبدو . . (٢)

(١) قصر الشوق — ص ٤٦٤

(٢) السكويه — ص ٩٥ ، ٩٦

٧ - الانتحار :

لما كنا نفتقر الى دراسة احصائية عن اسباب الانتحار ، ودوافعه في مجتمعنا العربي ، وخاصة المصري (١) ، فقد اعتمدنا مرجعين غربيين ، هما جان مارك المولونج في المجتمعات الغربية .

المرجع الأول ، هو كتاب بعنوان " الانتحار " ، " Suicide " لمؤلفه اميل ديركهايم Emile Durkheim . وفيه يورد العالم ثلاث حالات ، تدفع بالانسان الى الانتحار .

١ - عدم الانتماء - (2) Egoistic Suicide

كان لا ينتمي المنتحر الى عائلة ، أو دين ، أو حزب ، وعادة ما يكون غير متزوج .

٢ - الانتحار الغيري (ضد الاثاني) - (3) Altruistic Suicide

ان شدة الارتباط بالعائلة وغيرها من المؤسسات تدفع الى الانتحار وتدمير النفس حتى لا يخيب امل العائلة او المؤسسة .

٣ - التغيير المفاجي - (4) Anomic Suicide

كالتغيير الاجتماعي والقيمي والاقتصادي السريع . والافلاس المفاجي ، سبب مباشر .

(١) سألنا الدكتور حلم بركات ، استاذ علم الاجتماع ، عن اسباب الانتحار ودوافعه في مجتمعنا . فأفادنا بأنه ليست هناك دراسة علمية خاصة وأما رعلينا بمراجعة الكتابين اللذين اعتمدناهما في دراستنا .

(2)	Durkheim , Emile	Suicide	- P. 177
(3)	=	=	= - P. 222 - 223
(4)	=	=	= - P. 258

Suicide

والمرجع الثاني ، هو كتاب بعنوان " الانتحار - والبلاد السكندنافية " and Scandinavia

لمؤلفه هيربرت هيندين ، Herbert Hendin . وفيه يقارن الكاتب ، ظاهرة الانتحار في البلدان السكندنافية الثلاث ، السويد ، والدنمارك ، والنرويج . ويخلص الى اعاء ملامح مميزة للانتحار في كل من هذه البلدان .

١ - في السويد : انتحار سلوكي ، ويسميه الكاتب (1) "Performance " type of Suicide

وينبثق من توقعات سلوكية محددة ، مع كره للنفس نتيجة الاخفاق .

٢ - في الدنمارك : انتحار لفقدان الاعتماد (2) "Dependency loss" type of Suicide

وينبثق من السلبية ، والحساسيه المفرطة للهجر ، وايقاظ مشاعر الذنب عند الآخرين .

٣ - في النرويج : انتحار اخلاقي معنوي (3) "Moral " form of Suicide

وينبثق من تصرف لا اخلاقي عدائي ، ومن شعور قوي بالذنب .
يشير هذا التصرف ازاء اشخاص طيبين .

وقد حاولنا ان نحدد ترابطا بين حالات الانتحار ، التي تكمل بنا سلسلة احاياء المجتمع في اعمال نجيب محفوظ ، وبين الحالات الواردة في المرحمين اعلاه . فتبين لنا ان همم الانسان ومشاكله ، في مجتمع معين ، تكاد تلامس همم ومشاكل الانسان في كل مجتمع ، وان اختلفت المقاميم . والاسباب المؤدية الى المواقف . ولناخذ انتحار نفسه ، في رواية " بداية ونهاية " ، مثلا : ان نفسه ، قد اتخذت موقف الانتحار ، وتدمير النفس ، انبثاقا من شدة ارتباطها بالعائلة ، وحرصها على الا يخييب اهل عائلتها ، وهو ما سماه ديركهايم ، بالانتحار الغسيري .

(1)	Hendin, Herbert	-	Suicide and Scandinavia	-	P. 146
(2)	=	=	=	=	P. 146
(3)	=	=	=	=	P. 147

وان كانت نفسه ، قد اتخذت هذا الموقف ، بسبب امتنانها العبر ، فقد تتخذ انسانة ما ، او انسان ما ، في مجتمع آخر ، هذا الموقف نفسه ، ولكن لسبب آخر ، يختلف باختلاف مفاعيم ذلك المجتمع ، وانتماءاته الاجتماعية ، والاخلاقية ، والدينية .

ويمكننا ان نضع الاسباب التالية ، لانحراف انحاي الانثحار في قصص نجيب محفوظ :

- ١ - الخبز والجنس - نفسه ، في " بداية ونهاية " .
- ٢ - التطلع الطبقي - حسنين ، في " بداية ونهاية " .
- ٣ - الانتهازية والتسلق - سرحان البحيري ، في " ميرamar " .
- علام يسرى ، في " بيت سي السمعة " .
- ٤ - الانفلاس - شداد ، في " الســـــــــــــــــمـــــــــــــــــجـــــــــــــــــره " .

صحيح ان نجيب محفوظ ، يكتب عن مجتمع معين ، وعلى وجه الخصوص ، عن الأسرة المصرية المسلمة ، المنتهية الى طبقة البرجوازية الصغيرة ، والتي تحرم تعاليمها الدينية قتل النفس . الا ان شخصياته ، هي شخصيات مكافحه ، تصارع الفقر والذل والحرمان ، تصارع العالم والاضطهاد ، تصارع القدر والانسان ، وينتهي صراعها غالباً الذي هو صراع فردى ، نهاية مأساوية . حتى عند التحول الاشتراكي ، والمفترضان تقوده ثورة منظمة ، ظل هناك من يمارع للتسلو ، على مستوى فردى ، فسقط ، كسرحان البحيري ، في رواية " ميرamar " .

ونحن نرى ، انه ليس المجتمع ، بشريخته البرجوازية الصغيرة ، هو الذى يوقع الانحاي ، لكن المجتمع ، بكل وجوهه وشرائحه ، الاقطاعي ، والديكتاتوري ، والبرجوازي ، والاشتراكي . فمناك دائماً وحرمان للحياة ، الخير والشر ، الظلم والعدل ، النجاح والافتقار ، المعرفة والجهل ، الحـــــــــــــــــســـــــــــــــــن والشبع ، الكبت والارتواء ، الى آخر التناقضات التي تخلق الصراع . ولئن غلبت على اعمال نجيب محفوظ ، النهايات المأساوية الحزينة ، فلائه هو - باعترافه - " من جيل غلب عليه الحزن ، لكن الحزن غير السوداويه والتشاؤم . وشخصياتي محبة للحياة ، ولحياة افضل ، ولكن تصرفنا ظـــــــــــــــــروف

خارجة عن ارادتها ، ولأنني ان ار الى الموت بعين الإنسان الاجتماعي لا الفردى ، فاني ارى ان الموت لا يفعل شيئاً بالمجتمع البشرى ، ففي أية لحظة ستجد مجتمعاً يعج بالملايين . (١)

(١) شوشه ، فاروق — مع الأدباء ، نجيب محفوظ — مجلة الآداب — العدد ٦ ، حزيران — سنة ١٩٦٠ — ص ١٨ و ١٩

انتحار نفسه :

نفسه ، في رواية " بداية ونهاية " ، هي ضحية الخبز ، والجنس ، والجهل . فهي فتاة لا مال ، ولا جمال ، ولا أب لها : " ومن المؤسف حقاً ان المرحوم ، أبى على نفسه ، ان تواصل تعلمها في المدرسة ، فالتعليم ينفع أمثالها ، ممن لا حيلة لهم " . (١)

بلغت نفسه ، الثالثة والعشرين ، وهي تحس بحاجتها الى عطف ، وحب ، وحنان . فالواقع ان غريزتها الانثوية ، كانت الشيء الوحيد ، الذى سلم من النقش والضعف ، واستوى ناعجا حارا ، فلم يخل صدرها من عذاب سحين ، وثقت له تربتها ، وكرامتها ، واسرتها ، بالمرصاد . فهي بنت ، وهي جاعلة ، ودميمه ، وبيتمه ، والاسرة كلها مشغلة بعد وفاة الوالد في تأمين استمرار حياتها ، الأخ الأكبر حسن ، ترك البيت ، ليخفف مضروته ، والأخوال الالبان ، حرما المصروف وانصرفوا الى التحصيل المدرسي . والام الأم الأرملة ، حملت مهم تأمين المعيشه ، بجدية وعزمه ، لم تبقيا مجالا عندا لآية عالقة " حتى الحزن نفسه محرم على أمثالنا من الفقراء " . (٢)

لذلك ، وجدت في سلمان ابن البقال ، بعد ان اصبحت تخرج من البيت للخيالة في البيوت ، ولا يتباع الحاجيات الضرورية ، وجدت فيه انسانا - ايا كان - يبدي نحوه ميلا ، ثم انه امكانية زوج . . مع انها كانت تشك في قبول اخوتها به ، فهم جميعا ذوو كبرياء ، لم يقدر الفقرا ان يغلب كبرياءهم ، وتشك في قبوله هو بها ، وتشك انه يفكر فيها حقاً .

اخوتها لا يقبلون به ، لأنهم من اسرة موظفين ، وفي مجتمع البرجوازية الصغيرة في مصر ، تحس طبقة المؤلفين ، تعاليا على اصحاب المهن الحرة . وهي مع مناركتنا اخوتنا فسيحي احساسهم ، الا انها لدمامتها ، وفقرها ، وحرمانها ، وجدت في سلمان ، الانسان الذى ابدي نحوه ميلا ، ومسردون ان يدري ، جرحها الدامي ، حين اخبرها انها اجمل فتاة رآها في حياته .

وجدت فيه امكانية الخلاص .

(١) بداية ونهاية - ص ٢٥

(٢) - ص ٤٤

أما سلمان ، الفتى المحرم ، فقد وجد فيها ، على دمايتها ، انثى تنسب للجنس المحبوب العزيز المال ، فحرب بهذه الفرصة التي تتيح له القليل من الحب . لكنه لم يكن هو نفسه ، يمتلك الثقة واللمأنينة التي بشا في روحها ، فقد كان اسير ارادة والده ، وعندما رأى الوالد ان مصلحته كتاجر ، ان يصاهر تاجرا آخر ، لم يستلح سلمان ان يرفض .

ولحاجة نفسه الى المال ، تخيط هي ، ثياب عروس سلمان .

هذه المفارقات ، في رأى غالي شكرى ، " هي التي تصوغ مأساة نفسه (رضيقت بالهم لكن الهم لا يرضى بي) فاذا تراكمت هذه التناقضات واشتد صراعها ، جاءت لحظة ، فشعرت (بأن " يا انيما ينقلب رأسا على عقب ، وانما تغوص في اعماق ما لنا تزار) ، وهي لحظة التحول الشامل ، لحياة التغير الكيفي العميق في حياة نفسه . الا انه ، الى نفسه المأساة . فلم تعد فتاة فقيرة دمية ، او عاصية فحسب ، بل أصبحت امرأة لا تملك احلام العذار . امرأة بلا مستقبل " شريف " و " كريم " كما تفهم طبقتها الشرف والكرامة . " (١)

أي ان نفسه ، وصلت الى نقطة اليأس من حياة شريفة كريمه ، يوفرها لها الزواج . ورغم ذلك ، لم تعتزل الحياة ، لأنه في رأى نحيب محفوا . كان هناك عامل غريز اقوى من النسرف والكرامه بمفهومها المجتمعي ، عامل يرد لها كرامتها بمفهومها الانثوي الانساني ، هو عامل الرغبة المشبوهه ، التي تشتعل في دميها ، ولا حيلة لها فيها . " هذه الرغبة وحدها تأبى عليها ان تعتزل الحياة وتتوارى ، بيد انها لم تعترف بنا امام شعورها وانكرتها ، وقالت لنفسها انما ترضى الهوان في سبيل النقود ، التي تحس حاجة اسرتها اليها ، ولكنها صارت نفسها بحقيقتة وتجاهلت الاخرى ، وسرعا — ان كان ثمة سرور — ان تدول عينها شهيدة وناحية لليأس والفقر . " (٢)

(١) شكرى ، غالي — المنتهى — ص ١٥٩

(٢) بداية ونهاية — ص ١٦٤

ولذلك ، ومع علم نفسه ، أن سلوكها يعد جريمة في المجتمع ، استمرت فيه ، لا لسهولة ، وهي التي تركت مهنة الخياطة ، بعد تخرج حسنين ، ولكن لأنها لا تستطيع التخلص من ما فيها . وتشعر أنها تشد اليه بقوة شيطانيه ، فلا تستطيع منه فكاً و " ما الذ الغزل ولو كذب . حال مخزيه ولكنها ترد اليها اعتبارها وكرامتها كأنشى مهيضة الحناج . " (١)

كانت هي تسعى وراء كرامتها ، بعد ان أصبحت الكرامة عندها ، فالكرامة هي التي أزمت نفسه منذ البدايه " لست الا خياطه ، ليست كرامتي التي تمزعلي ولكن كرامته انت يا اي " (٢) . كانت شيئاً ، وليست الآن شيئاً على الإطلاق . عدم مخيف ويأس قاتل ، عقدت سلطان الإرادة على جسد ها ، وروحها ، وعواطفها . عقدة الكرامة تماركت في أزمة نفسه ، وحولتها الى مأساة .

فحين تغيب نفسه ، في بيت تسأجره ست روميه ، وتؤجر حراته بالساعة للعشاق ، ويبلغ اخوها الضابط ، حسنين ، تحسد جريمتها امام ناظرها ، وتحمر بالخوف وبالنقص ، وبالترنبة في الموت ، الذي عاشته بعد موت ابيها . " اني ميتة كأبي عوفي باب النصر وانا في شبرا " (٣) . ولأنها انسانة حزينة ، وكئيبة ، ووعنه ، ويفزعها ضميرها من التعبير عن مشاعرها العدائية ضد الآخرين ، توجه العداة لنفسها ، وتقرر ان تميت نفسها " لقد أجمت . . . اني اعلم هذا . . . ولن أسالك غفرانا لست جديرة به . . لا اريد ان يمك سوء بسبي ، حتى لو كان السبب هلاكي ، ثم بماذا تجيب اذا سئلت عما دفعك الى قتلي ؟ دعني اقم انا بهذه المهمة فلا يكدركم قدر ولا يدري احد . " (٤)

ان ارتباط نفسه ، بعائلتها ، الى حد تضحيها بكرامتها ، وعناكها من اجلها ، قد اجاز لها ان تضحي بحياتها ، في سبيل الآ تفجع العائلة بسلوكها ، ولا يتأثر مستقبل احد من اخوتها بانحرافها . وهذا ما القى عليه دبركها ، اسم الانتحار الغيري ، أي ضد الانساني .

- | | | | |
|-----|--------------|---|-------|
| (١) | بداية ونهاية | — | ص ١٦٥ |
| (٢) | " | — | ص ٧١ |
| (٣) | " | — | ص ٤٩ |
| (٤) | " | — | ص ٣٦٩ |

انتحار حسنين :

وإذا كانت نفسه ، هي ضحية الخبز والجنس والجهل ، فإن حسنين هو ضحية التطلع الطبقي والرغبة في تغيير الواقع المخجل . ولم يكن يهمله من تكون شخصيته ، اخته نفسه ، الخياطة ، أخاه حسنا ، الذي احترف البلادة ، والذي اعتبر حسنين ، حياته فنيحة يحب السترة عليهما ، وأخاه حسينا ، الموظف التعيس في طنطا .

بعد حصوله على البكالوريا ، لمع في دخول المدرسة الحربية ، مدفوعا بنفسه العلم ، السيادة ، والقوة ، والمظهر الخلاب . وكان له ما أراد ، بهال اخته الثمينة ، وأخيه البدلحي ، ونفوذ المفتش ، الذي اغرنه ما امر حياته المترفة ، فأنفجر في صدره بركان من الدموع ، والسخط ، والتليف ، على متع الحياة الناذقة المحترمة . وكان أخوف ما يخافه ، أن ينحصر في حياة ، كحياة حسين ، فيقطع عمره ما بين الدرجتين ، الثامنة والسادسة ، بلا أمل ناظر .

وكان كل أمه ، أن يسدل على الماضي ستارا كثيفا ، فبات يدخل من أخيه حسن ، السندى مده بالمال ، ومن اخته الخيال ، التي بذلت في سبيله كثيرا ، وبات يدخل حتى من قبر والده ، المكشوف بين قبور الصدقة . وأصبح التغيير ، هو الحل ، للفرار من الماضي ، وكل ما يرباهم به . حتى الأصدقاء والجيران . تمنى لو يغمز عينيه ثم يفتحهما ، فلا يجد أثرا للماضي كله ، خـبـيره وشره ، وفي محاولته الفرار من ما ضيه ، وحاضر أخيه حسن ، يتقدم حسنين ، لخلاصة البـا المفتش " لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة . ولعله عرف على غزو عينيهما ، حاسبا من نفسه كان غامدا ، وهو انه يؤثر في اعماقه الطموح ، على السعادة والسلامة " (١)

وكان أخرى بالطموح ، أن يوصله إلى السعادة والسلامة ، لولا أن ما بنفسه أكثر من الدموع ، في نفسه تالسم طبقي ، انحراقي ، يفصح عنه نجيب محفوظ ، حين يلتقي من اعماقه ، هذه الكلمات

"أني أكره الفقر وسيرته ، ولا أحب أن أخفّر رأسي ، بين أناس مرفوعي الرؤوس ."(١) إذن ، هو لا ينشد سعادته ، في حدود منحزاته ، وقد أصبح غابا ، وإنما ينشد الوصول إلى طبقة معينة . ومن هنا انحرافه كما يقول غالي شكري " أن كراميته للفقر تمثل الجانب الشورى ، أما أن يكون الدافع لذلك هو الرغبة في أن ترتفع رأسه بين بقية الرؤوس المرفوعة (أي أبناء الطبقة العليا) فإن ذلك يمثل جانب الانحراف ، الذي يؤدي به فيما بعد ، إلى نهاية الدريق المسدود . فشورته تنحرف نحو مصي تالما بقيا ، وتسلفا ، ووصوليه ، ومحاولة ساذجة للصعود إلى أعلى ."(٢)

لقد نجح حسنين ، في أن يغيّر لقب اختره لنفسه ، من خياطه ، إلى اخت الضابط ، وفي ظنه أنه غيّر واقعها ، وقضى على جانب كبير من أسباب شعوره بالمهانة .

ونجح في تغيير المنزل الذي كانوا يقيمون فيه ، وفي ظنه أنه بذلك يدحو الماني بوكي ماله علاقة به ، من مقومات تصنعه : المكان ، والزمان ، والناس . ولكنه لم ينجح ، ولم يقدر ، أن يغيّر واقع أخيه حسن ، البدلجي ، المهرب ، الذي ود لو يئمله أو يقتل نفسه ، حينما كان البوليس يطارد ، " بودى لو اقتل ، لن يروح عن صدرى اقل من القتل . . دعيني اقتل نفسي ما دمت لا أجد من اقبله ."(٣) أراد أن يقتل نفسه ، لأنه شعربان كرامته تحتضر .

وعقدة الكرامة ، هي المحور الأخلاقي في حياة البردوازيين الصغار ، فالكرامة ، هي العمل الوحيدة المباحة ، لأن تكون تعويضا للنقد الاجتماعي والاقتصادي . والكرامة ، هي في الواقع عقدة حسنين ، التي وصلت به إلى حد أن يقتل أو يقتل . . تحسن كرامته ، من ساعة دفن والده ، فقد كان حريصا على " ألا تقع عين على القبر حفلا لكرامة الأسرة ."(٤)

(١) بداية ونهاية - ص ٢٣٤
(٢) شكري ، غالي - المنتهى - ص ١٦٧
(٣) بداية ونهاية - ص ٣١٩
(٤) - - - - - ص ١٤

وتحس كرامته ، عندما اعلنت الأم ، ان نفيه ستعمل خيال له ، " لن تكون اختي خيال له ، كلا ولن اكون اخا لخياله " . (١) وتحس كرامته ، وهو يقف امام اخيه حسن ، ياللب القسسط الاول لدخوله الحربية " اشتد اثمنازه وحفته ، ولعن الحاجة من اعماق قلبه ، في يأس وقهر . هل يحتاج ان يغضب لكرامته حقا " . (٢) وتحس كرامته ، زملاؤه في المدرسة الحربية ، يهزأون من خطيبته ، " وشعر بكره وامتعاظ ، وبجرح عميق في كرامته " . (٣)

وحسب حسنين ، انه استطاع ان يتغلب على كل هذه العقدة ، بإيقاف نفيه ، عمن عملها كخياله ، وبتغيير المنزل ، وما يعنيه من ارتباط بموت الوالد ، والفقر ، والجيران ، وبفسخ خطوبته ، ومحاولة خطبة ابن البيك .

وكان يمكن ان تنتهي عقده مع اخيه حسن ، بفرار هذا الأخير ، باختياره " يجب ان اختفي سأغادر البيت حاما اقدر على الحثي ، وربما غادرت القلركه " . ويتساءل حسنين " هل يمكن ان يحدث هذا قبل ان تقع الواقعة ؟؟ هل يختفي حقا ، فلا تقع عليه عين ولا يعرف له أثر ؟؟ فليتقدم حيث هو ، يجب ان احيا حياة مطمئنه " . (٤)

الا أن القدر ، كان اقوى من ارادة التغيير الفرديه ، التي جابه بها حسنين ، حياته . دعمه القدر ، في صورة بوليس ، ينبئه بأن اخته ، ضباط في بيت سرى . تلك الفتاة الفقيرة ، الدميعة ، التي دفعت عجلة انهيارها ، محاولتها ذات ليلة ، ان تتجاوز عقدة الكرامة ، مع ابن بقال .

وفي يأسه وذهله ، يقرر ان يقتلها . وتشنيه عن قراره ، لانها هي ستقتل نفسها . ويرغم ان قرارها زحزح عن عاتقه حملا ثقيلا ، الا انه فقد شعورا بالكرامة ، لازمه وهو مضم على قتلها بنفسه . فاستحال من شخص يندفع وراء الكرامة ، الى آخر ينشد السلامه . وساق اخته الى

(١)	بداية ونهاية	—	ص ٢٤
(٢)	—	—	ص ٢٤٣
(٣)	—	—	ص ٣١٤
(٤)	—	—	ص ٣٦٠

الموت ، وكأنه يسوق جوان الفقر ، وذل الكرامة ، وثقوة السمع ، وتعاسة التلم إلى أعلى . .
 فما كاد النيل يبتلع صرختها أمام الموت — آخر مظاهر الحياة — حتى كان يفكر في مصيره . .
 انه موقف تتوافر فيه اسباب الانتحار ، فهو قد تصرف مع اخته تصرفا عدائيا لا اجتماعيا ،
 فقوى سموره بالذنب كما يقول هيربرت هيندين .^(١) ووجد أن نفسه ، التي طالما تآقت لتدمير
 أى عائق يقف في طريقها ، هي العائق ، فدمرها .

لقد أبدى مثل هذه الرغبة ، وهو في موقف يأس . موقف ، أحس فيه أن انسانا —
 يقف في طريق حياة نظيفة ينشدها " بودى لواتل " ، لن يروح عن صدرى اقل من القتل . .
 دعيني اقتل نفسي ، ما دمت لا اجد من اقتله . .^(٢)

يريد ان يقتل . لكنه بحكم مركزه الاجتماعي ، كمنابط ، يخشى العواقب ، كذيرة ، راحة
 والعقاب " كيف تنتهي هذه المحنة ؟ وكيف اخرج منها ؟ أيمن حقا ان يسدل عليها
 الستار دون ان تفوح منها رائحة حرية بأن تجعل من عذا العناء كله ، عبثا لا طائل تحته ،
 ما اشد عذابي ، كيف اتغلب على هذه التعاسة كلها . اني اسوقها الى الموت وليس الموت
 بنهايه ، ولكنه بداية لتعاسة اخرى تنتظرنى في البيت . .^(٣)

ويعترف حسنين ، لنفسه ، وهو يقف أمام جثة اخته ، انه ما وجد في نفسه يوما الآتمنيات
 الدمار لمن حوله ، أى أن رغبانه المكبوتة كان لا بد لها من التعدي ، ليحول عدوانه ضد
 نفسه ما دام قد عرّاه " أحق اني التائر لثرف اسرتنا ؟ اني ثرا الأسرة جميعا . حكمة يعرفنا
 الجميع ، واذا كانت الدنيا قبيحة فنفسى اقبح ما فيها . رياه لقد قضى علي . .^(٤)

(١) Hemm , Herbert - Suicide and Scandinavia - Page 147

(٢) بداية ونهاية — ص ٢١٠

(٣) — — ص ٣٨١

(٤) — — ص ٣٨١

انتحار سرحان البحيري :

في رواية "ميرامار" ، يذهب سرحان البحيري ، الشاب الثوري الاشتراكي ، محاسب شركة الغزل بالأسكندرية ، وعضو مجلس إدارة الشركة المنتخب ديمقراطيا عن الموظفين ، وعضو لجنة الاتحاد الاشتراكي ، ضحية انتهازيته ، إذ تركز عقده ، كما يقول أحمد محمد علي ، " في طمعه وتطلعه الطبقي ، وعدم رضاه بمكاسب الثورة ، ومحاولة الحلول محل البرجوازية الكبيرة المنهارة ، واخذ امتيازاتها " . (١)

ومنذ البدء ، يحدد نجيب محفوظ ، التناقض الذي يصروع سرحان " يا صاحبي انني بطبعي عدو اعداء الثورة الاتفهم ؟ واني من المعوقين ببركاتنا الاتفهم ؟ " (٢)

هو صديق للثورة ، لا لأن الثورة خير يعم الجميع ، بل لأنها وعدته ببركاتنا ، بعد ان اصبح هو الدولة " كسنا وقتذاك اعداء الدولة ... اجل ... أما اليوم فنحن الدولة " . (٣)

ولأنه هو الدولة ، ولأنه لا يجد للحياة معنى بلا فيلا ، وسيارة ، وامرأة ، فليعمل — أى شيء — ليحصل على الفيلا ، والسيارة ، والمرأة ، ولو كان هذا الشيء ، سرقة الشركة نفسها ، واختلاس اموالها ، فمال الشركة " مال بلا صاحب " . (٤)

ويبدو في موقفه هذا من الحياة ، شبه ما يكون بموقف حسنين ، في رواية " بدايه ونهايه " . حسنين ، اختار الحريه ، ليحمل من الاضطحاك بالجيش ، سلما يتسلق به الى الطبقة العالمة — آنذاك ، وسرحان ، اختار ثورة ليحمل من الاشتراكية ، سلما ، يتسلق به الى الطبقة الجديدة ، الوارثة لامتجاد الطبقات القديمة .

(١) عليه ، أحمد محمد — نجيب محفوظ — والريق الثورة — الآداب — العدد ٥ ، أيار ، سنة ١٩٦٧ ،

ص ١٠ —
(٢) ميرامار — ص ٢٢٥
(٣) — ص ٢١١
(٤) — ص ٢٠٨

وفي تصرفاته اليومية العادية ، المنبثقة عن نشأته الفقيرة ، والمتطلعة صوب البقية ، تبرير لنهايته المفجعة . هو يطرد المومس من حياته ، بحثا عن حب شريف ، وحين يعثر على زهره ، ويناوله حبها فؤاده ، فان حزنا عميقا داخله ، يدفعه الى القول متحسرا " لو كانت من اسرة .. لو كانت على علم او مال " . (١) فهي اذن ، ليست من الطبقة التي تصلح للزواج كما يريده " الزواج مؤسسة اذا لم يرفعني من ناحية الأسرة درجة مما حدوا به ، واذا لم تكن العروس موظفة على الأقل فكيف افتح بيتا يستحق هذا الاسم " . (٢) تماما كما يحسّر حسنين ، بهيه ، ليخطب بنت الباشا ، لتؤمن له حياة لبقية أعلى .

لذلك لجأ سرحان ، الى المدرسه المولفة ، ليخطبها . فهي بنت اسرة ، ووالدها يملك عمارة متوسطة بكرموز .

وهو يمثل الثورة الاشتراكية ، بادعائه ، الا انه دائم الذعر من فكرة مصادرة الثروات . وفي رأى غالي شكوى ، ان سرحان ، " لم يكن مهتما اهتماما حقيقيا بالسياسة ، رغم ذلك ، انه الموفور فيها ، ولكنه كان مهتما اهتماما حنونيا ، بأن تتم العملية ، وتنتج الصفة ، ويصبح فسي غمضة عين ، وبحسبه بسيطه من اثراء البنوك ، لا زهره ، العالقه الوحيدة الصادقة ، التي خفق لها قلبه ، ولا الاشتراكية ، التي قفز بها الى مجلس الادارة صباحا ، ولبس الحنفوز ليلا ، بمستطيعين ان يحولوا دون اختياره لهذا الطريق الى الثروة . وهو الطريق المسدود في " بداية ونهاية " ، امام حسنين ، ونموذج البرجوازي الصغير المتسلق قبل الثورة ، وهو ايناس . الطريق المسدود ، في " ميرامار " بعد الثورة ، الطريق المؤدى بالمتني اليها هذا النوع من الانتماء ، الى الدزيمه الكاملة ، وليست العين الأخلاقية الثقيلة ، هي التي سدت الطريق فسي وجه سرحان ، وانما الشغرات التي لا نهاية لها قد اوعدت الباب نائيا . ووقعت العملية برمتها

(١) ميرامار - ص ٢٢٤

(٢) - ص ٢٣٨

في شباك الأمن ، وتبذر على سائق السيارة المحملة بالبضائع . تماما كاعتقاد نفسه ، الى القسم من بيت الدعارة ، ولم يعد امام سرحان البحيري ، الا ان يؤكد من جديد ، مأساة حسنين .
ذاك ألقى بنفسه في النيل ، وهو يحمل على كتفيه نجم الأنشواء للنداء ، وهذا مزق ثيابه ، وهو يحمل على كتفيه كافة علامات الأنشواء للثورة ، من عبوية عبئة التحرير ، الى عبودية لجنة العشرين بالاتحاد الاشتراكي العربي . (١)

ولكنه في الواقع ، لم يكن يؤمن بالثورة ، كحل مثالي ومنصف للواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، الذي نبت فيه شخصيات نجيب محفوظ ، في " الثلاثية " و " خان الخليلي " و " ذئب القلوب " و " بدايه ونهايه " و " السراب " . وفي حوار مع طلبه مرزوق ، الرجعي ، لا يندفع الى أقتناعه بمزايا الثورة ، وانما يعتبرها مهربا من حلين اسوأ منها .

" سرحان — هل ادلك على عزاء حقيقي ؟

طلبه — ما هو ؟

سرحان — البعض يضيفون بالثورة ، ولكن أي نظام يمكن ان يحل محلها ؟ فكرر

قليلًا او كثيرا فلن تجده خارجا عن واحد من اثنين فاما الشيوعيون

واما الاخوان ، فأيهما تفضل على الثورة . (٢)

انبثاقا من عدم ايمانه بالثورة ، اعتدى عليها ، سرقها ، لكنه حين اكتشفت سرقة ، رد

عدوانه الى نفسه ، لأسباب تتعلق بمركزه الاجتماعي ، خاف الفضيحة واحس بجريمته " ان ارتحلف

ولا تكاد تحملني قدماي . فكرت لحاة في الشرب ، ولكني عدت — تحت عيني الحرسون — الى

المائدة . اليأس يزحف بسرعة مذهلة . وخوف مثل الشيطان . البيت من البارمان زحاجة واندفعت

في الشرب بلا وعي ، والبيت موسى حلاقة ثم اودعتا حيبي . انفصلت عن الباربيشي —

المشقة ثم مشيت نحو الباب الخارجي مترنحا يائسا متعذرا . عبرت الطريق وبودي لو اركب ركنا .

كنت يائسا . . . يائسا . . . يائسا . . . (٣)

(١) شكرى ، غالي — نجيب محفوظ وأزمة الانتماء الى الثورة — مجلة مواقف — العدد ٥ ، سنة ١٩٦٩ .

ص — ١٦٣ — ١٦٤

(٢) ميراميسار — ص ٢٥٩

(٣) — ص ٢٦١

يبدو أن نجيب محفوظ ، يرمز بانتحار سرحان ، إلى انتحار فئة من المجتمع ، لا تزال المظالم الفردية الاثنائية تسيطرنا . لقد انفسى من موت سرحان ، عامل القدر ، وأن نفسه بعد الانتحار ، بأنه غيب السرقة . وانفسى عامل الصراع لأجل حياة زائفة سريعة ، كما أراد لها عبس الحظ . وصابر الرحيمي ، وحتى حسنين . . فهذا رجل ، وصل لأن يكون الدولة باعترافه ، ومع هذا سرقها وسرق نفسه ، وخانها فخان نفسه ، وهكذا حول رغباته العدائية ضد نفسه مباشرة ، بالانتحار .

وقد تفاوت اثر موت سرحان ، بالنسبة لمجتمعه الذي عاش فيه — وهم سكان البنسيون — ، كل حسب ارتباطه بالميت ، وبنظرته للحياة ، وموقعه في المجتمع :

ماريانا ، صاحبة البنسيون ، التي تمثل البقية الباقية من ذكريات الاستغلال الاجنبي لمصر ، لا يهمها من موت سرحان شيء " سوى ان يكتشفوا القاتل عاجلا ، وان يكون بعيدا عنا كل البعد ، والا ارى وجه رجل من رجال البوليس " . (١)

والمبة مرزوقة ، الذي يمثل الطبقة الحاكمة قبل الثورة ، والذي يرى ان الثورة لم تصنع شيئا الا انها سلبت البعض اموالهم ، وسلبت الحمية حريتهم ، يقف نغم موقف ماريانا " كم اتعنى ذلك ايضا " . (٢)

وزميره ، الفتاة الريفية البكر ، التي تحسد الوجه الثوري الجميل لمصر ، سمعت ، وانصارت تماما في حجرتها ، وقد اغلقت الباب . فلقد احبت سر ان كثيرا ورغبت في الزواج منه ، لكن سر خانها . . .

— " ماذا اعددت للمستقبل ٢٢٠٠ ؟ "

قالت وهي تنزوي الى الأرض ما تزال كالعاضي تماما ، حتى احقق ما اريد " . (٢)

- | | | | |
|-----|---------|---|-------|
| (١) | ميرامار | — | ص ٨٢ |
| (٢) | " | — | ص ٨٢ |
| (٣) | " | — | ص ٢٧٢ |

وعامرو جدى ، الصحفي الوفدى القديم ، الذى يشعر بأبوة الروحيه الثوره ، ويتحسد ذلك ،
في خلع ابوته على زهره ، يهمس في اذنها :

- " ثقي من أن وقتك لن يضيع سدى ، فان من يعرف من لا يصلحون له ، فقد عرف
بطريقة سحرية الصالح المنشود ..

وكعادتي لدى جيشان الصدر ، هربت الى سورة الرحمن ، فرحت اتلو : الرحمن
علم القرآن ، خلق الانسان .. علمه البيان .. (١)

وبهذه الآيات ، كما يقول غالى شكرى " يضيء " نجيب محفوظ ، اريق الامل وسط اللمة
الشاملة ، الامل الانساني العام ، والمجرد ، الذى يتجاوز ما هو خاص ومحدد . فالهزيمة المحددة
التي تعيننا ، ليست شيئاً ، اذا قيس بآمال لا نهائية للسماء والارض . (٢)

ومنصور باهي ، الشيوعي المرتد ، المنتقم الثاني من الثورة ، يحاول ان يلحق تيمة قتل
سرحان ، بنفسه . وبالفعل ، ركله وعموميت ، وأراد ان يقتله ، لولا انه نسي الحذر ، أراد ان
يقتله ، لأنه في ذاته " يستحق القتل لصفات وتصرفات هي مرذولة في ذاتها ولكنها ليست
بقاصرة عليه .. (٣)

صفات يشترك هو الآخر فيها ، فكأنه أراد ان ينتحر ، بقتل سرحان ..

(١) ميرامار - ص ٢٧٩
(٢) شكرى ، غالى - نجيب محفوظ وازمة الانتماء الى الثورة - مجلة مواقف - العدد ٥ ، سنة ١٩٦٩
ص ١٦٤
(٣) ميرامار - ص ٢٧٧

انتحار علام يسرى :

وينتحر علام يسرى ، في اقصوصة " الختام " من مجموعة " بيت سي " السمعة " ، وهو في ذروة انتصاره العملي ، والاجتماعي : انراكشاف احد مروضيه ، تزويرا في شهادة ميلاده .

فاكتشاف التزوير ، يعني بالنسبة لعلام يسرى ، واحد أمرين : اما ان يقع اسير المؤلف ، فيحاول ارضاءه بالتورط في تصرفات لاالما عفا عنها ، واما ان يرفض تهديد المؤلف ، فيفتضح امره .
" وفي الحالين لا يمكن ان تنسى كرامتك " . (١)

ويتعامل نجيب محفوظ ، منذ بدء الاقصوصة ، مع علام يسرى ، الذي يحفه بأنه " مثال لاسب حقا في وسط ملعون ، وذلك الخال الذي ارتكبه منذ خمسة وثلاثين عاما . ينحصر على غير انتشار كلغم منسي . وقد ارتكبه ليقبل في المعهد ، وحتى لا تنيع آماله عباء . ولم يكن منامرا . ولا مستهترا بالمبادئ ، ولكن اغتاله الضعف والامل . وكان موقفا رغبيا عندما تدم اوراقه ، فتأثرة مدققة من عين المسجل ، كانت كفيلة بنبذه من المجتمع . وآمن بأن " حريمته " قد دثنت في الملف الى الابد . ولكنه لم ينس انه سيغتنال الحكومة في عامين من مدة خدمته ، ولم يرحمه ما تقدم من عمل مجد واستقامة ، فعزم على " الب الا " حالة على المعاش ، عندما يحل موعده الحقيقي ، الذي لا يعلم به احد سواه . اجل ، لما ذكر نفسه بذلك ، ولعل " مرز القلب الذي انتابـــــــــــــــــه منذ اعوام ، كان نتيجة لحدة شعوره بالشوكة الخفيه المنغرزة في ضميره " . (٢)

علام يسرى ، لم يقترب جريمة بسبب الفقر ، ولا بسبب التسلق ، ولا بدافع الانتقام من انسان خان مثله . . ان جريمة ، هي احتيال على القانون ، هي التزوير ، حتى لا تنيع آماله عباء . وكان ذلك في عهد الشباب المبكر . ومع انه انكب على عمله بأخلاص ، طوال خمسة وثلاثين عاما ،

(١) بيت سي ، السمعة — ص ١٤٩

(٢) — — — — — ص ١٤٤

فكان مثال الرجل الكفّي ، الـليب السـمعه ، إلا أنه لم يستلـع أن يمـحو حـريـة ، ولو اكتشف فـي البدء كانت " كـفيلة بـنبذه من المـجتمع " . ولو اكتشفت وعوي القـمه ، بعد أن رقي إلى وكيـسل وزارة ، وبات يتأـمب لتزويج ابنته الوحيدة ، لا أصبح في أحد حـالين : أما أـسـرا ذليـلا لـمـالـسـب متسلق انتهازي ، أو رجلا مفـضوحا بالمـجتمع .

وكان عليه لكي يتخلص من هذا الوضع أن يقتل ، أما الموظف وأما نفسه ، ودمر نفسه وهو يعني قتل الموظف . وفي منولوج داخلي تتجـر رغبتـه في القـتل . يحـرى المنولوج ، بـشكل حديث مـمع الموظف " أتـحسب أنك ملكـت كل شي " ؟ أنا أقول لا ، فما أنت صانع ؟ أجل نحن في الخـلاء حقا ، كورنيش النيل ، إلا تحب هذا المنـدار الخـلاب ؟ لـمـلـك خائف ، رأيـ . كان ينبغي ——— ان اكون أنا الخائف لا أنت اليس كذلك ؟ لا . . . لن يفيدك الصراخ ، مت كحشره . " (١)

وشددت قبضته على عجلة القيادة بقوة فظيعة . . . ووقع حادث اسيف في طريق الكورنيش . وقال المحزونون : جرى القـاء عليه ، وهو يترتب سـماتـين ، تـرتيـته ، وزواج كريمته .

انتحار شداد :

يورد نجيب محفوظ نبأ انتحار شداد، اثر افلاسه بأيجاز . ومولا يتناول الانتحار كحدث مصري - كما في حال نفيه وحسنين - ولكن ليكمل به عناصر موقفه النفسي، تأملتي، لكمال . ان تداعى في نفس كمال، بلقائه برفيق شبابه المبكر، صور العالم التي ولت . واحدة تلو اخرى . صورة الحب ، تمثله بعائده . صورة الخداقة ، تمثله بحسين شداد . صورة الحماسة ، العارمة . تمثله بفهمي . وحتى قهوة محمد عبده ، مأوى ذكرياته ، ستهدم هي الاخرى ، فلا يبقى لها من اثر . ويحيى نبأ انتحار شداد، ليكمل هذا الموقف . الحياة عبث " أهذه هي نهاية الحلم القديم ؟ الافلاس والانتحار كأنما قنن بأن تؤدبه هذه الأسرة بأدب الانسانية الساقطين . (١)

ان شداد (٢) ، الذي لم يتحمل صدمة افلاسه ، بعد ان التهمت البورصة آخر ملجأ في حوزته ، فانتحرت ، قد حاسم صورة مثاليه ، طالما تاق كمال الوصول اليها ، القصر ، والحدائق . والكشاك ، والتنعيم . صورة حياة اللبقة العليا ، التي رفضت حب كمال . " تصور آل عابده في حياة متواضعة ، كحياة هؤلاء الناس حولنا . فليل تعذي بدور يومنا بهروب مرفو ؟ ومثل تتخذ من الترام مركب ؟ أو تتزور من مولف بمطلة كذا ؟ ولكن ماذا ينفع من ذلك كله ؟ آه . لا تغالط نفسك فأنت اليم حزين ، ومهما يكن لعقلك من رأى في الحب ، وفارقنا . فأنك تشعر من حراء هذا الانقلاب بانديار مخيف ، ويعز عليك ان تسمع بأن مثل العليا ، تتمرغ في التراب . (٣)

(١) السكينة - ص ٦٣
(٢) انتحار شداد ، يندلق عليه ما اسماه اميل ديركهايم في كتابه " الانتحار " الى Anomic Suicide راجع ص ٢٥٨
(٣) السكينة - ص ٦٤

تقاليد الموت :

ذكرنا في المقدمة أن نجيب محفوظ ، يرافق شخصياته مرافقة تفصيلية ، تكاد تصل إلى حد المسح الاجتماعي الشامل . ويبلغ به رصده وتسجيله ، إلى التعريف بأدق التفاصيل ، وكنا نعرفنا على تقاليد عامه الموت ، عند الطبقة الوسطى ، كالحرص على حنازة لائقة ، وقبر لائق ، وعلى زيارة القرافه ، وتزيينها بالزهور ، وتبادل الهدايا بين الجيران وأهل الميت . وفي رواية " خان الخليلي " ، يعدد الكاتب مراسم الدفن ، خلوة خلوة . وقد رأينا أن نسجلها في بحثنا لئلا يبرزها وجهها من وجوه احتفالات المجتمع المصري بأحد مظاهر حياته العامة

والخطوات هي : —

- ١ — يغطي الميت حتى الرأس بالغطاء ، قبل غسله وتكفينه .
- ٢ — يبتاع الكفن من حانوت بالنورية ، والتاجر يقيس القماش ، ويقلعه ، ويلفه ، دون أن يعني له الموت شيئاً .
- ٣ — يستخرج تصريح بالدفن ، من مركز الصحة ، والموظف يسأل بدمجة باردة وبعدم اكتراث ، عن اسم الميت ، وعمره ، ومرضه ، وهو يعرف أنه بدون هذه الورقة ، لا يمكن أن يغيب الميت في باطن الأرض إلى الأبد .
- ٤ — مرتزقة الموت ، يجيئون تباعاً ، يحملون أدوات الغسل والنعش ، براته عيونهم ، تويمة سواعدهم ، يكتمون وراء عبارات الرثاء المصطنع ، سوز التاجر بالريح المرتقب .
- ٥ — النعش يتهادى على الأعناق ، في حلة الشباب البيضا ، وتبادل الأيدي والمناكيب ، وقد وضع الطربوش عليه .
- ٦ — الأب ، والأخ ، والأقربون ، يسيرون خلف النعش مباشرة ، بوقار يحفله الإيمان .

- ٧ — العقبرة في ثوب قشيب ، فرشت أرضها بالرمل ، واصطفت عند مدخلها الكراسي ،
ودار بها السقاة •
- ٨ — يوضع النعش على الأرض ، ويكشف الغلاء ، ويرفع الميت ملفوفا في الكفن ، وتطبق عليه
الأيدي ، وتغيب به في جوف الأرض • ثم يصعدون بعد قليل من دونه ، ويجثون
عليه التراب ، حتى يستوى بالأرض •
- ٩ — ينضحون الماء عليه ، ويغيب عزيز وتنتهي حياة •
- ١٠ — يعود الأعمى إلى البيت ، البيت كئيب ، وقد كيم رياثر حجرة الراحل ، واغلق
بابها • (١)

ملاحظة عامة

يتداخل تأثير الموت في المجتمع ، وتأثره به ، بتداخل يكاد يكون وحدة هارمونية ، فهو يأخذ من المجتمع ويعطيه ، يفعل فيه وينفعل به ، يؤثر فيه ويتأثر به ، تلموت من حمة ، تأثير سلبي في الحياة الاجتماعية ، بما يخلفه من يتم وكل ، ومن فقدان المعيل ، أو الحبيب ، وله تأثير كبير ايجابي ، في حال الوراثة ، والانتفاع من مخلفات الميت ، والخلاص من حالة اجتماعية ، أو نفسية ، أو مالية معينة . ومن حمة ثانية ، يؤثر المجتمع في الموت ، فيدفع اليه ، كما في حالات القتل الانتقامي ، والقتل الإجرامي ، وموت الفتوة ، والقتل السياسي ، وموت العاشق الشاب بمرض خبيث طواه في صدره خشية افتضاح امره في المجتمع ، والانتحار .

نلمح هذا التداخل في معظم اعمال نقيب محفوظ الرواية أو القصصية ، وتلموت كل خصائص البطولة : له القبل ، والذروه ، والبعد . والدور الذي يلعبه ، رئيس في مسيرة الحياة ، أو يحدد الطريق لكثير من الشخصيات ، بما يخلف من آثار اقتصادية ، ونفسية ، وعاطفية . كذلك ، فإن الحياة الاجتماعية ، بما يميزها من عادات وتقاليد ، وبما يبيع انسانها من غرائز ، وبما يخالف صدور زعمائها من تطلعات للحرية والاستقلال ، تمثل دورا مهما في احداث الموت ، والموت بدوره ، يمثل دورا مهما في احداث المجتمع . وهكذا ، تتشابه الحياة والموت ويتداخلان . ونورد مثلاً رواية " بداية ونهاية " : بدأت بالموت ، وظلت احداثها تنمو بتأثير ما خلفه هذا الموت فسيحيات ضحاياها من يتم وفقر ، وما توجه الحياة من كفاح واستمرار . وتتأزم الاحداث بفعل تصارع هذين الجبارين ، حتى تنتهي بأثنين من افراد العائلة الخمسة ، إلى الموت . فيكون الموت قد أثر في مسلك الشخصيات الاجتماعية ، والنفسية ، والعاطفية . ويكون هذا المسلك ، قد اودى بحياة هذه الشخصيات . وفي هذه الحالة ، يصح عنوان الرواية مكررا إلى ما لا نهاية : " بداية ونهاية " ، ونهاية وبداية .

الفصل الثالث

الأبعاد الميتافيزيقية للموت

- ١ - الترابط بين المشكلة الاجتماعية والقضية الميتافيزيقية .
- ٢ - أنواع الموت بالمعنى الميتافيزيقي .
 - أ - الموت مدنية .
 - ب - الموت القسري .
 - ج - الاستشهاد من أجل العدالة والحرية .
 - د - الموت في سبيل المصلحة .

١ - الترابط بين المشكلة الاجتماعية والقضية الميتافيزيقية :

وكما يتشابك الموت والمجتمع ويتلاحمان ، فيفعل فيه ويتفاعل معه ، كذلك تتشابك القضايا الاجتماعية ، والقضايا الميتافيزيقية ، وتتلاحمان .

فحين يحدث الموت ، يحدث في ارضية اجتماعية ، سواء كان موتا بالصدفة ، او بالقتل ، او بالمرض ، او بالانتحار ، او بالسكتة القلبية . فالميت انسان ، والانسان كائن اجتماعي . يولد . . يعيش . . ويموت . . وهو في صراعه من اجل الحياة ، يقف امام المشكلة الاجتماعية ، ولكنه في الوقت نفسه ، كما يقول احمد عباس صالح ، يقف امام المشكلة الميتافيزيقية ، فلو ان يسولد الطبيعة مقومات حياته المادية ، يغتر بالزما . ، كائن المشكلتين الاجتماعية والميتافيزيقية ، ما البعثة واحدة ، او ثما مشكلة واحدة . والديانات البدائية ، والديانات الحديثة ، تشترك جميعا في ذلك الخلط بين التدايسم الاجتماعي ، والخل الميتافيزيقي . وما من فكر اجتماعي الا ويحرب في جذور المشكلة الميتافيزيقية . (١)

وكما ان الظواهر الطبيعية ، تخضع للمنطق ، كذلك فان الموت نفسه ، في بعض صوره ، يخضع للمنطق ، فيمكن الاجابة كيف حدث الموت ، اما لماذا حدث ، فذلك سر الاسرار .

رشدى عاكف ، في " خان الخليلي " مثلا ، مات لانه مريض ، واعمل مرضه ، لاسباب اجتماعية : الخوف من الفقر اذا فقد وظيفته بسبب التغييب للاستشفاء . والخوف من ان يفقد حبيبته ، اذا عرف المجتمع بمرضه . اما لماذا مات رشدى عاكف ، فلا احد يعرف . وفي وتسلية الالم تخالب الالم الشكى ربنا متسائلة : " ما اردنا لو ترك لي ابني . " (٢) ولكن لماذا السؤال ، يظل بلا جواب .

(١) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ - مجلة الكاتب - العدد ٦١ ، سنة

١٩٦٦ - ص ١٠٣

(٢) خان الخليلي - ص ٢٦١

وحتى في حالات الموت الفجائي، الذي يحصل عن سكتة قلبيه مثلا، أو عن زلة قدم، أو حادث سيارة، يمكن الأجابة عن السؤال الأول، الذي هو "كيف"، علميا، واجتماعيا.

أما "لماذا"، فيظل الجواب لغزا.

يموت الإنسان بالسكتة القلبيه، لمرض في الدم، أو في الشرايين، أو في صمامات القلب.

ويموت بزلة قدم، لأنه أراد أن يتفادى قشرة موز، أو ولدا يميل، ويموت بحادث سيارة، لأنه لم ينتبه وهو يقطع الطريق، أو لأن (عوامل) السيارة تنطعت. أما لماذا هذا الإنسان دون غيره، وما يضر "دنياه"، لو تركهم لأهليتهم، وحبيباتهم، وأولادهم، فهنا السر...

نلقى هذه السببيه، والقدرية الجبريه، في كل أحداث الموت، عند نجيب محفوظ. وفي رأى ادوار خراط " بأن القدرية الغريبه، العميقة الخدير، هي أولى قسماطين نجيب محفوظ. قدرية تستخفي راسخة وليده، في قلب الأساس التمين المدون، الذي تنم عليه بعد ذلك، بنايات محكمة التشيد، دقيقة التسميم، لا تغفل عن أدق التفاصيل، ولا تتوانى عن معنى الخسوف العنايه بأوهى الروابط، كما تعنى بأتواغها بنية، وانحناء قواما. وعالم نجيب محفوظ، عالم المأساة المتهدد، والموت المتردد، والأخترار الذي يحيب أعز الأمانى، ويحبب العنفس الشهوات، والعالم الذي تحرق فيه مصائر النار، في كون ما نفتأ تستحوه فلا يحيب. تتلصص منه السعادة، والفهم، والاستقرار، والثروة، والأيمان، فلا تفرغ في الغالب، إلا بالبسوس والخيره والسقوط... (١)

كثيرون هم الذين سقوا صرى القدر، أتاغم الموت وهم لا يدرون، أثناء عبورهم الطريق، أو وراء مكاتبهم. وكثيرون الذين ناضلوا من أجل حق عام، وعدل عام، ومعرفة عامه، ثم سقوا شهداء هذه المشل اللا مراثيه.

(١) خراط، ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة، العدد ٧٣، سنة ١٩٦٣ - ص ١٧

٢ - أنواع الموت بالمفهوم الميتافيزيقي :

أ - الموت صدفة :

- - القتل غير المتعمد
- - الموت بحادث ثانوي

القتل غير المتعمد :

- حوادث القتل غير المتعمد ، كثيرة في اعمال نجيب محفوظ ، وله اكثر من شكل .
- أخ يضرب اخاه ، في شجار عادي ، فيسقط احدهما ميتا . رجل يصنع فتوة ، فيهوى صريعا .
- رجل يصوب مسدسه ، ليقتل خصمه ، فتخطئه الرصاصات وتستقر في قلب انسان ، كان يقف بالصدفة ، مكان الهدف .

وفي لحظة ، يصبح الانسان ، مجرما منبوذا . هولم يختر هذا المصير ، ولم يرد . وفي لحظة يموت انسان ، وتختفي حياة .

في رواية " اولاد حارتنا " ، يتشاجراخوان توأمان ، امضيا حياتهما يرعيان الغنم سوية ، يتشاجران بدافع الغيرة ، التي اغريها ايثار حردما لاأحد عما ، ولم يكنيا باللطم والصفع ، فتبادلا رمي الحجارة ، وأول حجر يرميه " قدرى " ، يصيب " همام " ، في جبهته ، فينكفي على وجهه ، وتكون نهايته . " كأنما القى الى الأرض من مكان مجهول فلم يمت اليها بسبب . " (١) الشاب الواعد المحب انتهى بلحظة وكأنه لم يكن .

لقد اراد قدرى ، - الأخ القوي - ان يرهب اخاه ، وان ينتقم عن غيظه بضربه . لكن الموت غلبه ، " هولم يدعه ، ولم يقصده ، ولكنه يجي " كما يحلوا له . " (٢)

(١) اولاد حارتنا - ص ٩٦ - (قدرى وهمام ، عما قابيل وعمايل)

(٢) - - - ص ٩٦

وأحسن قدرى — وهو القوى الجبار — بعجزه أمام الموت ، هذه القوة الجبارة التي ان جاءت كما يحلو لها ، فلا راد لها " ما دمت لا استطيع ان ارد الحياة ، فلا يحوز ان ادعي القوة " . (١)

ونبحث عن السبب الذى اودى بحياة همام ، قضاء وقدر ، فاذا هو الاعدل ، فلماذا يؤثر اخ بخيرات الجد ، ويحرم اخ ؟ صحيح انه لم يقصد قتله ، ولكن لولا احسان قدرى بالاحفاد ، والظلم ، لما تشاجر مع اخيه ، ولما هجم الموت هجوما غاشما .

والعدل ، في رأى الاب ، ادهم (٢) ، الا تذهب روح الشاب عدرا " قدرى ، لا ينبغي ان تحيا ، هذه هي العدالة " . (٣)

لكنه يكتشف انه اعز من ان يحقق العدل . فان قتل ابنه أصبح قاتلا ، تطارده العدالة ، وان أبقاه ، فانه يؤوى قاتلا في بيته .

وعلى فكرة العدل ، يبني نجيب محفوظ ، رواية " أولاد حارتنا " : العدل ، والمساواة ، والحق في حياة طيبة . وتزهق ارواح كثيرة في سبيل تحقيق هذه المثل ، وتنتهي الرواية ، ولا ينتهي الصراع . فلماذا يتحقق العدل والمساواة ، لا بد من المعرفة ، معرفة الأسرار التي توصل اليهما ، وهذا هو في الواقع ، ما يسعى الإنسان للوصول اليه منذ وجد .

انه يريد عدلا مطلقا ، وفي بحثه عن العدل المطلق ، يبحث عن النظام الكامل للكون . ولكن بحثه ينبثق عن حاجة اجتماعية ، فالحاجة الاجتماعية ، هي التي تدفع الى الحالة الميافيزيائية ، وهي التي تصور العدل العام ، مثلا أعلى تهون الشهادة في سبيله .

(١) أولاد حارتنا — ص ٩٦

(٢) هو آدم .

(٣) أولاد حارتنا — ص ١٠٥

وفي موقف آخر من رواية "أولاد حارتنا" ، يسقط ميت ثان ، بضربة لم يرد لها ان تكون قاضيه ، فيضربه نبوت من جبل (١) وهو الأعزل الشريف ، يسقط فتوه ميتا . ان جبل قد انتصر لأحد الرجال المظلومين ، أراد ان يحميه من حبروت اللغة ، وان يرفع العلم عنه ، فأصبح بضربة نبوت واحده ، قاتلا " يا ويلي ، هل انقلب قاتلا من اول ضربه ؟ ما وددت ان اكون قاتلا تظ . . (٢)

ان صناعة الموت ، هي عمل الفتوة الذي قتل ، وما كان بحسبانه ، وهو خارج ليوذوب الخارجين على ارادة الناظر ، انه سيلتقي صدفة بجبل ، وكيل الناظر ، انه سيوت بضربة نبوت ، من رجل لم يحمل النبوت ، ولم يحترف صناعة الموت .

وأما جبل ، فما مد يده الا لينتصر لحق عام ، لم يقتل دفاعا عن نفسه ، ولا لنيل مأرب ، ولا للانتقام . قتل لانه غلب للظلم ، وأراد ان يحقق العدل ، ان مكاسبه المادية الاجتماعية وفيه . - وهو وكيل الناظر - لكنه يعافيا وهو يبحث عن كرامة قومه وحققهم في حياة - ميلة .

وهنا ايضا ، تتشابك المشكلة الاجتماعية ، والمشكلة الميتافيزيقية ، فتصبحان مشكلة واحدة .

ويعززون حبيب محفوظ ، هذا التلاحم ، الى اعتماده في رواية "أولاد حارتنا" ، بالأفكار والمعاني ، أكثر من اعتماده بالناس والأشياء " أصبحت اليم اهتم بما هو وراء الواقع ، وباعثي على الكتابة افكار وانفعالات معينة ، تتجه الى الواقع لتحعله وسيلة للتعبير عنها . (٣)

هواذن ، يبحث عن مشكلات الانسان الأساسية ، وليس عن مشكلة انسان معين ، فـ

مازق معين ، وفي مجتمع معين .

(١) جبل هو موسى (نبي اليهود)

(٢) أولاد حارتنا - ص ١٣٩

(٣) خراط ، ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة - العدد ٧٣ ، سنة ١٩٦٣ - ص ٢٧

وفي رواية " اللص والكلاب " ، يموت عامل برى ، برصاصة منصوبة الى صدر غيره ، سكن بالصدفة

في بيت ، كان يسكنه رجل له غريم ، يريد ان يتحر منه . ويقتد الغريم البيت ، وفي انه ان غريمه لا يزال فيه . فيكون الضحية ، العامل شعبان حسين ، الذي لا غريم له ، فهو لم يسرق زوجة احد ، ولم يعتد على أموال احد ، ومع هذا قتل . . من انت يا شعبان ؟ انا لا اعرف . وانت لا تعرفني . . هل لك الحفال ؟ هل تصورت يوما ان يقتلك انسان لا تعرفه ولا يعرفك ؟ هل تصورت ان تقتل بلا سبب ؟ ان تقتل لأن نبويه سليمان تزوجت من عليش سدره ؟ وان تقتل خطأ ولا يقتل عليش ، او نبويه ، او رؤوف ، حوايا ؟ ، انا القاتل لا ادم شيئا ، ولا الشيخ علي الحنيد ، نفسه ، يستأجرون ان يفهم . اردت ان احل جانبا من اللغز ، فكشفت عن لغز اغمسر . . (١)

هذا اللغز الاغمض ، هو " لماذا " . لماذا ساقطت الصدقة هذا الانسان البريء ، الى

ذاك المكان ، ليلاقى حتفه ؟ وعلى يد رجل لا يعرفه ، ولم يتسبب في اذائه ابدا .

وكان سعيد مهران ، القاتل ، لا يجد حوايا عن تساؤلاته الا في دنيا القبور . فهو يتأمل

القبور ويستف " مدينة الميت والحقيقة ، ملئت الخراج والقتل ، والقاتل والذاتين ، مجمع التماسر والشرطه ، حيث يرقدون جنبا الى جنب في سلام ، لأول مرة ولا آخر مرة . . (٢)

التراث الديني يقول : " ان الموت حق " . وما هو نجيب محفوظ ، ينبثق من هذا التراث .

فالموت ، هو نهاية المطاف لكل كائن بشري ، وهو الحقيقة الاكيدة .

لكن الموت ، لا يحل المشكلة ، وسيظل الانسان دائما واقفا يتساءل ويأمل ، لقد امل سعيد

مهران ، انه سعيد الامانية الى الأحياء والموت ، لو هو قتل رؤوف علوان ، رمز الحرية في ناره .

(١) اللص والكلاب - ص ٩٠

(٢) - - - - - ص ٩٧

وستكون الرصاصة ، التي تدلّق من مسدسه الى قلب رؤوف علوان ، احتجاجا داميا مناسباً ،
لضياحه غير المعقول ، على الرغم من تأييد الملايين له " مأساتي الحقيقية انني رغم تأييد الملايين ،
أجدني ملقى في وحدة مظلمة ، بلا نصير . ضياح غير معقول ، ولن تزيل رصاصته عنه عدم معقوليته ،
ولكننا ستكون احتجاجا داميا مناسباً على أن حال ، كي يطمئن الأحياء والائتمات ، ولا يفقدون
آخراً مل . (١) .

مع هذا ، فحين صوّب سعيد مهران ، مسدسه ، الى قلب رؤوف علوان ، قتل بريثا كان
يقف بالصدفة هناك ، البواب المسكين .

وأحسن سعيد ، للحظة ، انه " كالمظاهرات الطبيعية الخارقة " يثير الخوف والأعجاب ،
الآن انه لا يقتل إلا الأبرياء .

" أنا لم اقتل خادم رؤوف علوان ، كيف اقتل رجلاً لا اعرفه ، ولا يعرفني ؟ أن خادم رؤوف
علوان ، قتل ، لأنه بكل بساطة خادم رؤوف علوان . وأمن زارتني روحه ، فنفّاريت خذلاً ، ولكنه قال
لي ملايين هم الذين يقتلون خذلاً وبلا سبب . (٢) .

وفي رأى غالي شكري ، " أن نجيب محفوظ ، لم يستهدف من رصاصات سعيد الطائشة ،
أن يؤكد العبث والتقديره ، وما المسا من مرادفات المحلول ، بتدريما اراد ان يؤكد ، ان صراع
سعيد مهران ، لم يكن صراعاً من اجل البقاء الذاتي . وانما هو صراع ، من اجل بقاء أكبر . (٣)
ويستشهد على ذلك ، بما قاله سعيد مهران ، وهو يحلم انه يدافع عن نفسه " أن من يقتلني انما
يقتل الملايين ، أنا الحلم والأمل وفدية البناء . وأنا المثل والعزاء والدمع الذي يفدح صاحبه ،
والقول بأنني مجنون ، ينبغي ان يشمل كافة العالميين . فادرسوا أسباب هذه المأساة
الجنونية ، واحكموا بما شئتم . (٤) .

(١) اللص والكلاب — ص ١٣٩

(٢) — ص ١٤٨

(٣) شكري ، غالي — المنتقى — ص ٢٧٢

(٤) اللص والكلاب — ص ١٤٨ ، ١٤٩

الموت بحادث تافه :

في موقف عبثي ، هو أقرب ما يكون الى الهزل ، يموت رجل كبير وناجح ، حين زلت قدمه ، وهو يحاول تفادي بول غلام صغير .

ويصف نجيب محفوظ ، الرجل ، بأنه موظف كبير . وبأن حياته ، سلسلة من المعارك متوجه بالانتصار . في ذلك متعته وكرامته ، في الحكومة او النادي او القرية ، منذ نشأته الأولى وعسى مناضل ، كأنه يعيش في حلبة ملاكمة .

وشعاره في الحياة " النضال هو روح الحياة وسرها . أما القيم المعسولة الخرعه ، فهي آفات الحياة " . (١)

حتى المرض ، له في مفهومه ، تفسير خاص " المرض - اذا لم يكن منه بد - فهو ظاهرة تلأوا على الجهاز البشري عقب لعمومه في السن . أما الداء ، فلا يمر الا لخلل في الكون " . (٢)
موازن ، رجل ناح ، ووصحيح الجسم ، ويؤمن بالنضال ، وله عشيقه " أما القيم المعسولة الخرعه فهي آفات الحياة " .

ولأن نجيب محفوظ ، يؤمن ، بأن " فوق قوة الإنسان ، قوة اعدام ، هي هذه القوة اللا مرئية ، واللا محسوسة ، الله او القدر ، فقد دبر له ميته ، تدارسخرية : " عند أول منعطف قبل المقيى .
وعقب نزوله من الطوار مباشرة ، قاصدا بيت عشيقته ، ووجد نفسه مدفوعا نحو غلام يبول . فتراحسرع
بسرعة عاتفا " يا ولد يا كلب " . كان الغلام يبول في علانيه استعراشيته ، وشاوة وشتت بسروره
بما يفعل ، وقد انللق البول متلا لثا تحت اربعة الشمس في غيبة توس ، والغلام يدفعه بحركاته
الذاتيه ، الى اتمى مدى يستايعه . تراحسكريم بث في شبه فزع ، فنزلت قدمه ، فهبول على ظهره

(١) بيت سيء السمعة - ص ٢٦٤

(٢) - - - - - ص ٢٦٥

فارتسم مؤخر رأسه بحافة الخوار ، ذعر الغلام نولى عاريا . ووقف المارة القريبون ليثامعدوا الحدث الغريب ، وهم بين الرثاء والابتسام ، وهمع اليه بعدد من النحدة ليسعته . وارتفع من بينهم صوت هاتفا :

— يا لطف الله .. الرجل جثة هامدة . (١) —

وفي اقصوصة " المتهم " ، من مجموعة " خمارة القط الأسود " ، يموت رجل وهو يغني .. الرجل يركب دراجه ، يقارع بها طريق السويس ، ويستعين على قاعها ، بالأشياء بمؤخرة سيارة كبيرة . ويصدف مرور ماعز في الطريق ، فتضطر السيارة للفرملة ، وتثني بذلك على راكب الدراجة ، المتعلق بها .

وتنتهي حياته بالراحة ، لتبدأ متاعب انسان آخر ، لا دخل له به ، ولا علاقة له معه . انسان ، صدف ان كان مارا اثناء وقوع الحادثة ، فاتهم بنا . والذين اتهموه لا يعرفونه ، ولا تأثر لهم عنده . وكان يمكن ان يكون المتهم ، واحدا من عشرات الألوف الذين يعبرون الطريق . لماذا هم بالذات ؟ لماذا تصبغ حياته رمنا بحياة القتل ، وما هو هذا السر الغامض الذي جعل الفلاحين يتهمونه ؟ ..

ويجيب نجيب محفوظ ، على تساؤلات الرجل ، مستدلنا آياه " لقد تم التعارف اليهم ، بيني وبين أشياء ، لم اعرفها قبلا الا بالسمع ، المصادفة ، القدر ، الحظ ، النية ، والعمل . كل شيء ، يجب ان يعاد التفكير فيه ، كل شيء ، كشيء ، وكل . يجب ان نبدأ من الألف ، لنفهم كل شيء ، ولنسيطر على كل شيء " . (٢)

فهو امام الماعزة ، لم يقدر ان يندلقا " ثمة آفة عمياء " محمولة تلحنه ، وكأنها لا تدرى . (٣)

(١) بيت سبيء السمعة — ص ٢٦٢

(٢) خمارة القط الأسود — ص ٧٠ و ٧١

(٣) = = = — ص ٦٨

ب - الموت القدرى :

يقول احمد عباس صالح : " ان الموت عند نجيب محفوظ ، هو بديل القدر الاغريقي . ومن هذا البعد ، يتخذ موقفه التراخيدي ، كل عناصره . فالموت يقف بالمرصاد ، امام كل الاحلام . وامام الرغبة التي لا تلبس في تحفيز السعادة . والموت هو الذي يختار ، والاختيار يفصح عن ارادة فيها شيء من القسوة ، ارادة تدبر وتحكم . وحين يحاول الانسان التدخل ، ان يلعب دورا في قضية الموت ، حين يأتي اختيار الانسان للموت ، على اساس من القصاص ، تليق بالرضايات ، كما تليق رضايات سعيد مؤرخ ، في اللزوم والكتاب . ويختار الموت ابعد الناس عن جدارته .

لكن نجيب محفوظ ، لا يقف موقفا مستسلما من الموت . يتمرد ، ويتحدى ، ويلوذ بالعلم فترة ، ثم ينتقل بشكل مباشر الى المشكلة الميتافيزيقية . (١)

والواقع ، ان هناك كثيرا من المواقف ، يعرب فيها نجيب محفوظ ، بلسان شخصياته .

عن تمرد - ولو كان سطحيا - على الموت الذي هو قضا من الله لا يرد .

في رواية " بداية ونهاية " ، وموقف الاخوين حسن وحسين ، من موت والدهما . في " السكينة " ، وموقف عائشة من موت ابنتها . في " خان الخليلي " ، وموقف ام رند ، عقب موت ابنها . في " السراب " ، وغضبة كامل رؤبه لاذ ، على ارحم الراحمين .

ان عائلة كامل علي ، في رواية " بداية ونهاية " ، تمثل الابقى الواسع في المجتمع المصري .

عائلة مسلمة ، مؤمنة ، متعلقة بالمداب الدين ، والقسم بالقبر عندنا ، يعني منتهى الصدق .

(١) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ (مقدمه) - مجلة الكاتب - العدد ٥٧ .

تقف هذه العائلة ، على لسان بعض أفرادها ، موقفًا متشككًا من العدالة الإلهية : حسن ،
يشتف في حيرة : " انت تقولين ان الله لا ينسى عباده ، وأنا عبد من عباده ، فلماذا كيف يذكرنا ؟
لماذا اخذ والدنا ؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب امثالنا من الضحايا " . (١)

وفي حوار بين حسين وحسين ، تبدو بذور الشك واضحة :

- حسين - " ان من يستسلم للأقدار ، يشجعها على التماهى في لغيانها . .
- حسين - علم نشر عليها . ودعنا نهتف لتسقط الأقدار كما هتفنا ليسقط
- هور . .
- حسين - ألم تغدنا ليسقط هور ؟
- حسين - عيهات ان تغدنا الاخرى . .
- حسين - من لنا الآن ؟ . .
- حسين - الله . .

وزاد الجواب من حنقه ، انه لا يشك في هذا ، ولكنه لا يقنع به .
الله للجميع حقا ، ولكن كم في الدنيا من جائع ومصاب . لم يتنكر يوما لعقيدته ،
ولكنه يتلهف في خونه ، على سبيل محسوس للطمأنينة ، فقال :

- حسين - لقد شاء ان يأخذ والدنا ، ويتركنا بلا معين .
- حسين - هو المعين . .
- حسين - ان هدوك الكاذب ، لا يجوز عتي . . انت لمؤمن حقا ؟؟
- حسين - المؤمن لا تخونه طمأنينته . .
- حسين - اني مؤمن وقلق معسا . .
- حسين - هذا من ضعف الايمان . .
- حسين - ليكن ، اني اعرف تلاميذ يجاهرون بالشك . .
- حسين - أعلم هذا . .
- حسين - هم اذكيا ومطلعون . .
- حسين - أتحب ان تفعل مثلهم ؟ .

قال في خوف :

حسنيين - كلا . . . لست من هواة الاطلاع . . (١)

مؤمن بفضل نشأته الدينيه ، وقلق بسبب وضعه الاجتماعي . ولا يتدرا ان يتخذ موقفا ،
ولا ان يبت برأى لانه ليس مطلعاً ، لانه لم يعط قدراً كافياً من العلم .

وأما عائشة ، التي تمثل النصف المستسلم من المجتمع المصري ، النصف الذي لا يحلم
بالتمرد على كائن بشرى ، فقد تمردت في لحظة ، على القضية المسلم بها في الموروث الديني ،
وهتفت " ما هذا يا ربى ؟ ما هذا الذى تفعله ، لماذا ؟ لماذا ؟ اريد ان انهم . . (٢)

ومثلها ام رشدى ، السيدة التي لا تغلغ فرضاً ، والتي لا تجادل ولا تحاور في امر من
امور الدنيا ، فكيف بأمور الدين . نسمعها امام الموت تخاطب ربنا بتمرد العاجز " ما خرد نياك
لو تركت لي ابني . . (٣)

وأما كامل رؤبه لاظ ، في " السراب " ، فقد كان اعنف في تمرد ، حين صاح بعد موت
زوجته : " ألا يزال ارحم الراحمين اوداعاً فلن اعبد بعد اليوم . . (٤)

الا أن تمرد ، لم يطل . اذ سرعان ما انقلب الى رغبة عارمة في الصوفيه ، على أثر وفاة
امه ، " لقد خلقت في الواقع متخوفاً ، ولكن اغلقتى نوازح الحياة ، وتمورت نفسي في البحر عجيب .
يستحم جسدى بما ، عطر ، وتتسامى روحي في صفاء ونقاء ، فلا مشهد ارنو اليه الا السماء ، ولا
خاطر ينبثق في نفسي ، الا الله . . (٥)

والصوفيه ، كالعلم ، هاجس من هواجس نجيب محفوظ . وتعقياً على كلام لنجيب محفوظ ،
يقول فيه : " انني االب الحياة حياة انسانية ، علاقات الناس تتم على الحب ، والتعاون ، وحتى

- | | | | |
|-----|--------------|---|-------|
| (١) | بداية ونهاية | - | ص ٣١ |
| (٢) | السكينة | - | ص ١٨٨ |
| (٣) | خان الخليلي | - | ص ٢٦١ |
| (٤) | السراب | - | ص ٣٥٤ |
| (٥) | - | - | ص ٣٦٦ |

يستطيعوا ان يتجهوا الى الله . . أتطلع الى لون من ألوان الحياة تستطيع ان تالقه عليه
" الصوفية الأستراكية " حياة هي التطلع الى الله " . يقول ادوار خراط تعقيا : "التصوف
على سبيل الأستلزام ، من عموم نجيب محفوظ ، التي ما تفتأ تلازمه وتلح عليه ، وما تفتأ تلهي
في عالمه . " (١)

هي محاولات من الفنان ، ليدرك كنه الحياة والموت ، ليكتشف سر الوجود ، ليسبغ في
تغيير الإنسان الى الأفضل . وحمل نجيب محفوظ " ، الإنسان المصرى ، بموروثه الديني العميق ،
وأدخله دنيا العلم . لعله بالعلم ، يصل الى الحقيقة . وكان كمال عبدالحواد ، نموذجاً لهذا
الإنسان ، فموقف كمال من الموت ، هو موقف التأمل ، المحاول ان يفلسفه ، الحاحدان يستنبط
منه ، معنى للحياة .

وقد مرت في " الثلاثة " ، ثلاث حالات ، كان الأموات فيها احب الناس الى نفسه .
هذا اذا استثنينا موت اخيه ، فهمي ، وكان كمال لا يزال صغيرا .

عقب موت زوج اخته عائشة ، وولديها ، وقف يقول : " هل ثمة حكمة رفيعة يمكن ان تبرر
القتل بالجملة ؟ " الموت نوع من العيب ، إلا ان الإيمان بالله ، هو الذي جعل من الموت ،
قضاء وحكمة ، يبعثان على الحيرة . ان الموت يتبع قوانين النكته بدقة ، ولكن كيف لنا ان نضجك ،
ونحن هدف النكته . ولعلك تستطيع ان تلاقيه بالابتناسام ، اذا تصديت له دوما بالتأمل الصادق ،
والفهم الصحيح ، والتجرد الأصيل . ذلك هو الانتصار على الحياة والموت معا . (٢)

ومن المسلم به ، ان التأمل الصادق ، والفهم الصحيح ، والتجرد الأصيل ، يعني العلم .

(١) خراط ، ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة - العدد ٧٣ ، سنة ١٩٦٣ - ص ١٨

(٢) قصر الشوق - ص ٤٦٢

وكان هذا هو موقفه ، عند موت أبيه . فقد اتخذ من احتضار أبيه ، زادا لتأمله ، ومادة لمعرفة . ومع احساسه بالخل ، من نزوع نفسه الى تحليل الموقف — بدافع الايمان — الا انه لم يستلح ، وقد اعتراه شعور بالعجز المطلق ، واليأس المطلق ، والتفاحة المألقة ، الا ان يصل الى نتيجة : " ان كنه هذه الساعة الاخيرة ، سيبقى سرا الى الابد . وان وصفه بالالئم ، أو الفزع ، أو الغيبوبة ، رجم بالغيب . ولكنه على كل حال ، لا ينبغي ان تلول ، انما اجل واخطر من ان تبتذل . " (١)

يريد كمال ، ان يتخذ من الموت ، منطلقا للتفكير في قضايا الحياة ، في اسرار الكون ، وفي معنى الوجود . لذلك نسمعه يقول واه تحتضر :

— " كثيرون يرون ان من الحكمة ، ان نتخذ من الموت ، ذريعة للتفكير في الموت . والحق انه يجب ان نتخذ من الموت ، ذريعة للتفكير في الحياة . فالنظر الى الحياة ، كمأساة ، لا يخلو من رومانطيكية طفليه ، والا جذربك أن تنظر اليها في شجاعة ، كدراما ذات نهاية سعيدة ، هي الموت . ثم سائل نفسك ، ألام تضيع حياتك هباء ؟ ان الأم تموت ، وقد صنعت بناء كاملا ، فماذا صنعت انت ؟ " (٢)

وسواء لحا الانسان الى الصوفية ، أو العلم ، في محاولته اليائسة ، لفهم سر الموت والحياة ، فان الموت والحياة ، يثلان في استمرار ابدى . بل لعل " نجيب محفوظ " ، يلجأ الى الموت ، كعملية انتقاميه ، من انسان ، يحسب نفسه وصل الى ذروة النجاح . وفي هذا ، يقول احمد عباس صالح ، " مشكلة الموت عند نجيب محفوظ " ، مشكلة معقدة ، انما ليست عملية ابيعية ، بل اشبه ما تكون بالانتقام . وهي في احسن صورها تبدو غير مفهومة ، وغير منطقية . وفي قصصه القصيره ، يكشف الموت عن نفسه ، قدرا غاشما احيانا ، غير مفهوم احيانا اخرى ، وقصاصا عادلا ، بعد ان ألقه نجيب محفوظ ، فراح يستعمله استعمالات انسانية . ولكنه حتى في هذا

(١) السكويه — ص ٢٦٥ — ٢٦٦

(٢) — ص ٢٨٩ و ٢٩١

الاستعمال ، تضطرب يده وهو يؤكد سلطانه المطلق . (١)

وفي قصة الختام ، من مجموعة " بيت سي " السمعة " ، يسوق نجيب محفوظ ، الموت ، كقصص للرجل الذى اراد ان يكون مستقيما ، وان يكفر عن خطأ ارتكبه ، في مطلع حياته .
لقد قدمه لنا وعوفي أوج نجاحه وسعادته ، غداة ترقيته الى وكيل وزارة ، واستعداد لتزويج ابنته الوحيدة ، من قاض شاب .

وتكون هذه الترقية ، السبب الذى يدفع به الى الانتحار . ان يكتشف موظف صغير ، أثناء مراعاة ملفه لأعداد البيان التمهيدى لتعيينه ، تزويرا في شهادة ميلاده ، ويساوم به ، فأما ان يعلن عن ذلك ، فينفذ امره ، وأما ان يسلك معه - أى الموظف - طريق التسوية .
أن تسلك الموظف الصغير ، الى حجرته ، قد قوض بنيانه بلطمة واحدة ، مما جعله يتطلع الى فضاء الغرفة ، منقبعا في ذهول ، عن القوة المدمرة الساخرة .

هذه القوة المدمرة الساخرة ، هي القدر ، الذى ظل يلاحقه ، رغم توبته خمسة وثلاثين عاما . ورغم عزمه على اصلاح خائيه ، بالاستقالة من الحكومة ، قبل عامين ، من موعد احواله على المعاش .

وفي النهاية ، يلجئ الكاتب ، الى الله " ومن غير الله ، يمكن ان ينتشك من مأزقك الخائق ؟ ودعا ربه طويلا حتى اغرورقت عيناه . (٢)

والواقع ، أن خطأ من هذا المستوى ، وسيره من هذا النوع ، لا يدفعان الى الانتحار . وربما اعتبر نجيب محفوظ ، أن الرجل ، قد اكمل رسالته بالوصول الى غاية سعادته ، فاختر لنفسه النهاية الطبيعية ، " الموت " .

(١) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ ، الموقف التراجيدى - مجلة الكاتب -

عدد ٥٢ ، سنة ١٩٦٥ - ص ٨١

(٢) بيت سي ، السمعة - ص ١٤٨

وفي اقصوصة "الهارب من الأعداء" ، من المجموعة نفسها ، يبرز إيمان نجيب محفوظ ،
بالموت ، كقدر لا يرد . تقول الاقصوصة ، أن انسانا هرب من جبل المشنقة حين ذُعت أوراقيه
الى المفتي ، ولجأ الى صديق له ، وتخفى عنده ، مدة عام ونصف العام ، اندلعت في نياتوسا
الحرب ، فأمل الصديق خيرا في الحرب ،

- - قلبي يحدثني يا سلامه ، بأنّ الشغل سيضحك عليك .. ليتني استطعت
ان اعتمد عليك ..
- صديقك .. واسير شهامتك .. ولكن لا يمكن ان ابرح الخرابه ..
- هل يعرفك أحد في المدينة خلف هذه اللحية ؟؟
- يعرفون الجن ..
- وهل يفتني عمر ، في الخرابه ؟؟
- هي خير من جبل المشنقة يا أبا محمود ..
- سأعريك الى فلسدين ، وستعمل هناك لحسابي .. ما رأيك ؟؟
- الرأي رأيك .. (١)

كان الهارب ، مستعدا ان يعمل أى شيء ، بشرط ان تسلم حياته ..
وبالفعل ، تنجح تجارة ابي محمود ، وتزدهر ، لدرجة انه يعتبر الحرب نعمة ..
• - يا ولد العم ، ليست الحرب كما يقولون .. الحرب نعمة كبرى .. والانكليز
رجال .. ولم تعد الزمارة تخيف احدا .. (٢)

وفي الغارة ، يقضى على كليهما . الهارب من الموت ، والمتاجر مع الموت .

والموت عند نجيب محفوظ هو القدر .

(١) بيت سيء السمعة - ص ١٨٤

(٢) - - - - - ص ١٩٠ و ١٩١

في أقصوصة " البارمان " ، من مجموعة " خسارة القط الأسود " ، يأتي الموت ليأتي على
أسطورة الرجل ، الذي يجد لكل شيء في الحياة تفسيراً ، يدخل السعادة إلى القلوب ، فهو
لا يعترف بالخوف ، ولا بالفقر ، ولا بالعجز والشيخوخة ، ولا بالخيبة في الحب . فكل هذه
السلبات ، وجوه أيجابية ، يراها هو . حتى الموت له معنى خاص عند البارمان :

- " الموت لا يجيء إلا مرة واحدة ، وإذا جاء أعقبته سعادة كبرى . .
- ها أنت تتحدث عما وراء الموت . .
- من أين أتيت ؟ ألا يشبه الظلام الذي أتيت منه الظلام الذي ستذهب إليه .
وقد أمكن أن يخرج من الظلام الأول حياة ، فما يمنع من أن تستمر الحياة
في الظلام الثاني ؟ " (١)

وثلّ الرجل السعيد ، القوي ، الذي لا يرن من الحياة إلا وجهها المشرق ، واقفاً
وراء البار كالتمثال . ولم يصدق الناس أعينهم ، وهم يرونه يتهاوى .
" وهل كان يمكن أن يموت رجل في مثل قوته إلا بضربة قاضية ؟ " (٢)

بهذا التساؤل ، ينهي نجيب محفوظ ، الأقصوصة ، مؤكداً إيمانه بالجبرية . " كـل
من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " .

وفي رواية " ثروة فوق النيل " ، يسوق القدر رجلاً في الخمسين ، شبه عار ، ليضعه في
في اللحظة التي كانت السيارة منطلقة بأقصى سرعتها ، تحمل جماعة العابثين ، الذين يعتبرون
أنفسهم لبيعين ، لا ينسبهم شيء ، وأن الأخلاق التي تديهم أخلاق ميتة ، مستوحاة من عصر
ميت ، وأنهم رواد أخلاق جديدة ، صادقة ، لم ينتظمها التشريع بعد .

(١) خسارة القط الأسود - ص ٥٦
(٢) - ص ٥٨

وتصدمه السيارة ، وفحاة تدوى صرخة مروعة ، ويفتح السائق عينيه مرتعدا ، فيرى شبحا أسود يطير في الهواء :

— " شخص ما تحلم
— قتل عشر ممرات " (١)

ويقرر الجماعة ، ان يكملوا سيرهم دون ان يساعدوا القتل . وينفذون هذا القرار .
لقد نجوا من المسؤولية .

ويغمض أنيس ، عينيه . ولكنه يرى الشبح الأسود وهو يطير في الهواء ، " ترى أمما
زال يتالم ؟ ألم يعرف لماذا وكيف قتل ؟ أو لماذا وجد ؟ أم انتهى الى الأبد ؟ وهل تعطي
الحياة كان شيئا لم يكن ؟ " (٢)

وهذا هو السر ، الذي يؤرق الفنان . هو مؤمن بقضاء القدر ، وبأن الموت نهاية
كل انسان . ولكن قلعه ، تابع من عملية اختيار القدر ، لماذا هذا الانسان دون ذاك ؟ وهل
يدري الانسان المختار ، انه اختير ، ولأى سبب !! وأبعد من ذلك ، أن الفنان يريد للانسان ،
ان يعرف لماذا وجد .

ولقد انلق نحيب محفوظ ، أنيس ، بهذه الكلمات — وهو نموذج المثقف في العوامه —
ليجعلها اسئلة منبثقة عن العلم . يريد للعلم ، ان يحل المشكلة الميتافيزيقية . وهذا هو
محور رواية " الشحاذ " ، ورواية " أولاد حارتنا " . وعن اتجاه نحيب محفوظ ، الى العلم ، يقول
غالي شكرى : " لقد احسن نحيب محفوظ ، منذ الوهلة الأولى ، أن الدين ، يشكل ركيزة اساسية
في بناء القيم ، التي نعشر بين حدرانها في الشرق . وعن طريق الدين ، أراد ان يدخل عالما
الروحي ، حتى يستابع — وهو داخل البناء — ان يستبدل هذه الركيزة الكبرى في حياتنا ،
بركيزة اخرى عرفت طريقها الى العالم المتحضر ، منذ زمن بعيد . تلك الركيزة ، هي العلم " (٣)

(١) ثريزة فوق النيل — ص ١٦٠
(٢) — ص ١٦٣
(٣) شكرى ، غالي — المنتهى — ص ٢٣٠

ج - الأستشهاد من أجل العدالة والحرية :

سئل نجيب محفوظ ، كيف تفسر القلق ؟ قال :

- " ان جميع فلسفات الأئسان ، منذ العصور القديمة حتى هذا العصر ،
رغم تفاوتها في القيمة ، ورغم صعورها وهبوطها ، لم تعط رسالة حقيقية لهذا
الجيل القلق .

وحتى الآن ينقسم هذا العالم الى قسمين : قسم يعطي الأئسان الحرية ، ويتركه
في غابه . وتسم عليه العدالة ، ويسلبه الحرية . وفي الحالتين يدفع الأئسان الثمن غاليا .
اظن لو أن العدالة ، اجمعت مع الحرية ، في ندام واحد ، تكون المنفذ . وما دام الأئسان
يفتقد احدى الحالتين ، فلن يرتاح له بال . " (١)

ويبدو نجيب محفوظ ، منسجما مع هذا الرأي ، في أعماله الروائية والقصصية . فأبطاله
في بحث دائم عن هذين المثلين ، ولأجلهما يقتلون ويقتلون ، وما وصل احد منهم الى
العشور عليهما ، او تحقيقهما . وتحسد الروايات الثلاث " الريق " ، و " اللع والكلاب " ،
و " أولاد حارتنا " ، هذا البحث الدؤوب ، عن الحرية ، والعدالة .

فصابر الرحيمي ، في رواية " الريق " ، أضع عمره ، وارتكب حريمي قتل ، وحكم عليه
بالاعدام ، وهو يبحث عن أبيه ، ليمنحه الكرامة والحرية والسلام . كانت المشكلة بالنسبة له ، تعني
النجاه بالمعنى الاجتماعي ، والمعنى الفكري معا . فموان يبحث عن المثلث ، يبحث عن حل
لمشكلته الاجتماعية ، او موان يبحث عن حل للمشكلة الاجتماعية ، يلتقي بالمسألة الميتافيزيقية .

(١) نجيب محفوظ - الأدب ، الحرية ، الثورة - مجلة مواقف - العدد ١ ، سنة ١٩٦٨

ومشكلته الاجتماعية ، انه يريد كباقي الناس ، ان يكون له أب . فهو رجل بلا مال ، ولا أهل ، ولا عمل ، " ولا قيمة لأي عمل يجي " عن غير طريق أبيه " (١) ، هذا الغائب ، الذي يمنح الحرية والكرامة والسلام . هو اذن ، يبحث عن مطلق .

والبحث عن المطلق ، كما يقول احمد عباس صالح ، " هو البحث عن النظام الكامل للكون ، بفرض فهم القوانين التي تسير عليها الحياة الاجتماعية . فان هذا الفهم ، سيخلق حالة التوازن ، تلك الحالة التي ينشد لها نجيب محفوظ ، بجماع نفسه . فالقلق الكامن في الحياة الاجتماعية ، والذي يغذيه النظام السابق ، والنزوع البشري الى السعادة ، ويحيل اليه الفكر البرجوازي ، باعتباره حقيقة ثابتة أزليه ، هو المحرك الأساسي الى المشكلة الميتافيزيقية " . (٢)

فسعيد مهران ، في " اللص والكلاب " ، كان ينشد العدل ، وكان ينشد الحرية . فنصب نفسه قاضيا ، يحكم بالموت على من يعتبرهم رمزا لخيانة والعبث . ولما أفلت عيش ، من مخالف التأديب ، تنف سعيد : " نجا بخيانتك ليزيد الخونة الآمنين واحدا ، أما انت يا رؤوف ، فالأمل الباقي في الآخرة تنزع حياتي عبثا ، ولو كان الحكم بيننا غير المبررة ، لظننت تأديبك امام الناس جميعا . الناس معي ، هذا اللصوص الحقيقيين ، وذلك ما يعزيني عن النياح الأبدي . انا روحك التي ضحيت بها ، ولكن ينقصني التدايم ، على حد تعبير . وبأساسي الحقيقية ، انني رغم تأييد الملايين ، احبني ملقى في وحدة مظلمة ، بلا نصير . ضياع غريب معقول ، ولن تزيل رصاصة منه عدم معقوليته . واكننا ستكون احتجاجا دائما مناسبا على أي حال ، كسي يطمئن الأحياء والاموات ، ولا يفقدون آخرامل " . (٣)

(١) الطريق - ص ٨١

(٢) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ (المشكلة الميتافيزيقية) - مجلة الكاتب ،

العدد ٥٩ - سنة ١٩٦٦ - ص ٧٣

(٣) اللص والكلاب - ص ١٣٦ - ١٣٧

هو في الواقع ، ينشد لمانينة الأموات والأحياء ، إلى العدالة • وروءف علوان • ورمز العيث • فالرخصة التي تقتله ، تقتل في الوقت نفسه ، العيث • والدنيا بلا أخلاق ، تكون بلا جاذبية • ولست أجمع في أكثر من أن أموت موتاً له معنى • (١)

ولأنّ سعيد ، يحسّ أن الملايين عاجزون ، فهم ليسوا أحراراً ، لأنّ " المسدس ربه الأعلى " ، فإنه لا يأمل منهم النجاة ، رغم أنهم يعطفون عليه • لكن أفهم ، عالسف صامت ، عاجز ، كأماني الموتى •

مويثل الحلم ، في الحرية والعدالة • أنا الحلم والأمل وفدية الجبناء • وأننا المثل والعزاء • والدمع الذي يفضح صاحبه • وإنّ من يقتلني ، يقتل الملايين • (٢)
الملايين ، الذين ينشدون العدالة الكونية ، والحرية الملقاة ••

وفي رواية " أولاد حارتنا " ، يموت رفاعه (٣) ، شهيد إيمانه ، بأنّ السعادة من حق الجميع ، وأنه يجب أن يخيم الحب والسلام ، على جميع الناس • ولكن " كيف للحب والسلام ، أن يعيشا بين الفقر ونباييت الفتوات •• (٤)

والفقر ، يعني اللا عدالة • وآما نباييت الفتوات ، فتعني اللا حرية •

ولم يسلك رفاعه ، سبيل القوة ، لتطهير الحارة • فقد كان يؤمن بأنّ الشر ، يهزم بالطيب الحميل • وانبثق إيمانه عن واقع حارته ، التي لا يوزنها الحبروت ، ورغم ذلك تعيسر في ذلك ، وفقر ، وخوف ، كل ساعة من نهار أوليل ، نر أنا ما يربون ويجرحون ويقتلون • حتى النساء ، ينشبن اللاأفر حتى تسيل الدماء ، ولكن أين العدل ؟ الحق أن حارتنا عسي حاجة إلى الرحمة •• (٥)

(١) اللص والكلاب — ص ١٤٢

(٢) رفاعه هو السيد المسيح — ص ١٤٨

(٣) أولاد حارتنا — ص ٢٣٠

(٤) — — — — — ص ٢٤٥

والرحمة ، تبدأ من قلب الإنسان . وهكذا ركز رفاعة ، اهتمامه بالنفوس ، وليس بالوقف .
فالسعادة شيء ، غير الوقف ، وغير الخمر ، وغير الحشيش . السعادة ، هي أن تارد الصغرى است
من نفسك بالمحبة ، فإذا تخلص الإنسان من غفريته ، تأخر من الحق ، والامع ، والكراخية ،
وسائر الشرور .

والواقع أن موقف رفاعة ، هو أكثر المواقف ميتافيزيقية . فهو ينشد المطلق ، دون اللجوء
الى الأساليب الدنيوية . فلا قتل ، ولا سرقة ، ولا عريضة ، ولا خداع . كان يريد أن يبرهن ،
أن " السعادة ليست في الحياء والقوة ، وأن غاية الإنسان من وجوده على الأرض ، هي السفا
الآخرين ، وليس قتلهم " . ولخير للإنسان أن يُقتل من يقتل . (١) . وإن المسألة ، لا تعني
الضعف . " فمصارعة العفاريث ، أشق عشرات المرات من الاعتداء على الضعفاء ، أو منازلهم
الفتوات . " (٢) .

كان رفاعة ، يحارب جانب الشرف في الإنسان . وهي معركة تتألب شجاعة اسمي ، وقسوة
أشد ، لأنها معركة مع اللا محسوس ، واللامرئي . فليس الشرائع ، لتقتله وتخلص منه ،
وإذا لم يتألم الإنسان التغلب عليه ، فهو لا محالة مملوكه . ولكن دعوة رفاعة ، هي عالم مليء
بالمال والكتب ، لم تنجيه من قدره ، حيث يدفع الى الموت ، بأيدي الحزبين ، والذين
أحاطوا به " مسار مستسلما للمقادير . . . وغضبه الظالم ، وأخيرة ، والشر ، الذي يتبدده .
فلم يكسب يفكر فيمن هرب ولا فيمن خان . . . وإن عليه حزن شامل عميق ، فغطى حتى على
مخاوفه ، وخيل إليه أن ذلك الظلام ، سيمسي صفة الدنيا الملازمة . " (٣)

(١) أولاد حارتنا — ص ٢٨٩

(٢) — — — — — ص ٢٩٠

(٣) — — — — — ص ٢٩٤

واذا نزع احدكم الى القوة اُخريه ، واذا ادعى فرد اوحى سيادة أدبوه ، بهذا وحده تضمنون الاّ ينقلب الحال الى ما كان ، وورينا معكم . " (١)

لكن الوصول الى العدل المطلق ، والحرية المطلقة ، في عالم يعير فيه الإنسان ، معناه العالم الكامل . ولما لم يتحقق هذا العالم في أى عصر من العصور رغم تطوره ، ولما كان نجيب محفوظ ، يؤمن بأرادة الحياة في التطور ، وبالثورة الأبدية ، فإنه سيالسل يبحث عن طريق التصوف حيناً ، وعن طريق العلم حيناً آخر . سيدفع أناس كثيرون ، حياتهم ، ثمناً لهذه المعرفة .

وسيظل كفنان ، يبحث عن الحقيقة المطلقة ، لأنه يعتقد " أن الفن زعم لنفسه أحياناً ، البحث عن الأسرار العليا في الكون . " (٢)

(١) أولاد حارتنا - ص ٤٤٢

(٢) نجيب محفوظ - ملاحظات على المشكلة الميتافيزيقية - مجلة الكاتب - عدد ٦ ، سنة

١٩٦٦ - ص ٩٢

د - الموت في سبيل المعرفة :

يقول نجيب محفوظ : " أنا اعتقد انه لم يوجد زمن تسلطن فيه العلم على عرشه ،
كزماننا هذا . فالعلم في نظري خير خالص ، ولا يعلق به الشر إلا من نوايا الإنسان . وانما
لا أغفل عن معجم بعض الفلاسفة والأدباء على العلم ، لكن الهجوم يجب ان ينصب على السلوك
الاجتماعي ، أو السياسي ، أو الفردي للإنسان ، لا على العلم نفسه .

وأنا اعتقد ان الفن ، زعم لنفسه أحيانا ، البحث عن الاشرار العليا في الكون . نجد
هذا في كثير من الشعر الرومانسي ، والرمزي ، والأدب الفلسفي ، قديما وحديثا . (١)
وانبثاقا من هذا الايمان بالعلم والفن ، أطلق عرفة (٢) في " أولاد حارتنا " .
ليبحث عن سر الوجود ، عن طريق العلم . وأطلق عمر الحمزاوي في " الشحاذ " ، ليبحث عن هذا
السّر ، عن طريق الفن .

وان كان عرفة ، قد دفع حياته المادية ثمننا لهذا البحث ، فان الحمزاوي ، قد دفع حياته
المعنوية . هو لم يت جسدا ، ولكنه مات ارادة وعملا . ربما لأن الحمزاوي ، لم يصل به
التشوف الى حد الجريمة ، في حين اترف عرفة الجريمة ، رغم ان شعاره الذي رفعه يوم جاء
الحارة : " انا ساحر في كل ما فيه فائدة للناس ، أما القتل فله أناس آخرون . " (٣)

عرفه الساحر ، الذي يستخرج مادة مفيدة من مواد قذرة ، والذي يشعر بلذة حنين
ياتر الشفاء بأمره . " ظل يتشوف للاتصال بالقوى المحبولة ، امتاكما لوائساع . " (٤)
هذا السحر ، هو العلم . وهو شبيء عجيب حقا ، لا حد لقوته ، ولا يدري احد اين يقف .

(١) نجيب محفوظ - ملاحظات على المشكلة الميتافيزيقية - مجلة الكاتب - العدد ٦٠ - سنة ١٩٦٦

- ص ٩٢

(٢) عرفة هو العلم .

(٣) أولاد حارتنا - ص ٤٥٧

(٤) - ص ٤٦١

وقد تبدوا النبأيت نفسها ، لمن يملكه ، لعب أطفال . لذلك فإن عرفه ، يدعوا صدقاءه ليتعلموا هذا السحر ، فالحارة يحكمها الفتوات ، رغم ما يروون عن عهود جبل ، ورفاعة ، وقاسم . لقد أصبح هؤلاء ذكريات " ونحن في حاجة الى قوة لتخلصنا من العذاب " (١)

والقوة ، هي هذه الزجاجة التي يضعها عرفه ، مع مساعده حنش ، في المنور المظلم . زجاجة معبأة ، ومحكمة الاغلاق ، ولا تحرب الا في الخلا ، وفيها القنا ، على الفتوات ، هؤلاء الذين لم يقدر عليهم أحد .

فإذا كان الجبلاوى نفسه ، وهو الجد الأكبر وصاحب الوقف ، ملتزما الصمت والاختفاء ، ووصاياه مهملة ، وأمواله مشيعة ، فمن يقتصر منهم ؟ (٢)

وقرر عرفه ، بسحره ، ان يكون هو المقتصر . فليقتصر العلم ، ولينشر العدالة المطلقة ، فأما أمن للجميع ، او لا امن لأحد " (٣) . وأكثر ، فإن سحر عرفه ، بعد ان يتمكن من القضاء على الفتوات ، سيشتيد المباني ، ويوفر الرزق ، لكافة اولاد الحارة .

ولكن عرفه ، يريد ان ينتشر سحره . ولن ينتشر " الا " اذا استغنى اكثرنا عن الكد وتوفروا على السحر " (٤) لذلك يقرر ان يذهب الى بيت الجبلاوى ، ليحصل من عناك على كتاب السحر الأول . . سرقة الجبلاوى ، الذي ضن به حتى على ابنه .

ورغم توسلات زوجته ، يصصر عرفه ، على الذهاب الى بيت الجبلاوى " لم يعد لي من علم في الدنيا الا البيت الكبير ، وليس غريبا على مجهول الأب ، ان يتطلع بكل قوته الى جده . وحجرتي الخلفيه ، علمتني الا " أو من بني " الا اذا رأيته بعيني ، وحبرته بيد . لا محيد عن الوصول الى داخل البيت الكبير ، وقد اجد القوة التي انشدها ، وقد لا اجد شيئا على الاطلاق .

-
- | | | | |
|-----|--------------|---|-------|
| (١) | أولاد حارتنا | - | ص ٤٦٨ |
| (٢) | " | - | ص ٤٧٥ |
| (٣) | " | - | ص ٤٨٢ |
| (٤) | " | - | ص ٤٨٤ |

ولكنني سأبلغ براً موعلي أي حال ، خير من الحيرة التي أكبدنا . وليس أول من اختار المتاعب في حارتنا ، كان بوسع جبل ، أن يبقى في وليفته عند النازل ، وكان بوسع رفاعسه ، أن يصير نحار الحارة الأول ، وكان في وسع قاسم ، أن ينأى بقمر وأملأنا ، وأن يعيش عيشة الأعيان ، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر . (١)

والطريق الآخر ، هو البحث عن المثلق . هو الاعتناء من الذات ، والاتحاد بالكل ، في محاولة لاكتشاف أسرار الكون ، وتحقيق الحرية ، والعدالة ، والسلام ، للمجتمع البشري .

وعرفه نفسه ، لم يقصد بيت الجبلاوى ، ويغامر بحياته ، إلا ليحصل على سرقته . لكنه بدلاً من أن يحصل على السر ، أصبح قاتلاً . " فعندما رأى الحوزيرقد بين الخيوبة ، وبين النعم واليقظة ، دفعته حركة غير ارادية ، ولا شعورية ، إلى الانقضاض عليه ، وخنقه . وممرت الثواني وموفي جحيم من العذاب الصامت ، وشعر بقواه تخور ، وبأن الزمن بات أثقل من الذنوب ، وناداه المرب كقوة لا قبل له بنا ، جاء ، وراء قوة يناضل بنا المجرمين فانقلب وهو لا يدري مجرماً . (٢)

والواقع ، أن دافع القتل عند عرفه ، ليس مبرراً ، ولا هو ممد له ، فكرياً ونفسياً . إلا إذا اعتبرنا أن الجبلاوى ، لالتزامه الصف والاختفاء ، وبالتالي السلبية ، لم يعد قادراً أن يحقق العدالة ، والحرية ، والكرامة لأحفاده ، فلا لزوم لوجوده إذا . غير أن مثل هذا الفرض ، لم يرد في اتوال وتصرفات عرفه ، الذي " قتل رجلاً لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه على يده سبباً . (٣)

ويرى أحمد عباس صالح " أن عرفه قتل الجبلاوى — ولم يكن على عداء معه — لأنه كسان يعتبره خرافة سلبية ، تستعين بها السلطة لتسم الناس كل أنواع المثلالم . إذن فقتل الجبلاوى ، كان لهذه الخرافة ، وإبطال استعمالها . (٤)

(١) أولاد حارتنا — ص ٤٨٧
(٢) — — — — — ص ٤٩٣ و ٤٩٤
(٣) — — — — — ص ٤٩٤
(٤) صالح ، أحمد عباس — قراءة جديدة لنحيب محفوظ (المشكلة الميثاقية) — مجلة الكاتب — عدد ٦١ ، سنة ١٩٦٦ — ص ١٠٦

وقد يصح هذا التفسير ، بالنظر لما اجمع عرفه ، القيام به بعد موت الجبلاوى . وتقول
الحكاية ، — ان عرفه قد قتل خادم الجبلاوى ، وان الجبلاوى لم يستلح تحمل الخدمة نفسها
تأثرا — ان عرفه ، وقد تجرع الالم ، يفكر في معجزة : " ان تعود الحياة الى الجبلاوى . .
ان كلمة من حدنا كانت تدفع اليبس من احفاده الى العمل حتى الموت ، مودة الموتى
من كلماته ، انه يوجب على الابن الطيب ان يفعل كل شيء . ان يحل محله ، ان يكون . (١)

يعني ان يحل العلم ، محل الخرافة . لكن العلم ، لم يقدر ان يوصله لأن يكون
الجبلاوى ، لأن الناظر اشتري علمه ، بالحياة الموعودة ، التي منحها اياه . . . علمه ،
استطاع ان يحل برودة الشيخوخة حرارة ، ولكنه لم يستطع ان يدفع الموت . . .

ويوما سألنا الناظر :

— لماذا نموت يا عرفه ؟

- كلنا اموات وابناء اموات ، لئلا عمرك يا سيدى . .
- لئلا اوقصر ، فالنهاية هي تلك الحفرة التي تعشقها الديدان . .
- لا تدع الافكار تمكر صفوك . .
- انها لا تفارقني ، الموت . . الموت . . دائما الموت . . يحيي في اية لحظة ،
ولاشك الاشباب ، أو بلا سبب على الاطلاق ، اين الجبلاوى ؟ اين الذين تتغنى
بأعمالهم الرباب ؟ هذا قضا ، ما كان ينبغي ان يكون . .
- المهم ان تكون الحياة كما ينبغي . .
- الحياة كما ينبغي واحسن ، لا ينقصها شيء ، حتى الشباب تعيده الاقراص ،
ولكن ما جدوى ذلك كله ، والموت يتبعنا كالظل ؟ كيف انساه وهو يذكرني بنفسه
كل ساعة .

- لولا حسد المحرومين من حولنا ، لتغير مذاق الحياة في افواهنا . .
- قول بالعجائز أجدر ، هبنا استطعنا ان نرفع حياة اهل حارتنا الى مستوى
حياتنا ، فهل يقلع الموت عن اصطيادنا ؟

- الموت يكثر حيث يكثر الفقر ، والتعاسة ، وسوء الحال . .
- وحين لا يوجد منها شيء يا احق ؟
- نعم ، لأنه معد مثل بعض الأمراض . .
- هذا اغرب رأى تدافع به عن عجزك . .
- نحن لا ندرى عنه شيئاً ، فلعله ان يكون كذلك ، واذا حسنت احوال الناس
قل شوه ، فازدادت الحياة قيمة ، وشعر كل سعيد ، بضرورة مكافحته حرصاً
على الحياة المتاحة .
- ولن يجدى ذلك فتيلاً . .
- بل سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت ، بل سيعمل بالسحر كل قادر ،
هنالك يهدد الموت الموت . وبذلك تقتل الموت . " (١)
- لكن عرفه ، الذى اراد ان يكون الجبلاوى ، وان يقتل الموت ، مات كأي انسان مجرم ،
مقهور . مات بأيدي رجال النار ، وهو يقيم بالمرب بكراسه السحريه ، بعد ان ابلغته خادمة
الجبلاوى ، ان الجبلاوى ، مات ، وهو راض عنه .
- وحشر عرفه وزوجه ، في جوالين ، حملهما رجال الناظر الى الخلاء ، والفتك بهما .
" يا لهذه الدقائق الاخيرة من الحياة المشحونة بأفئدة الآلام ، حتى السحر ، لا يستطيع ان يحدد
لنفذ المأزق الخائق مخرجاً . لم يعد له من امل في الراحة الا بالموت ، فليس ثمة الا اللام ،
وليس وراء اللام الا الموت . وخوفنا من هذا الموت انما هو تحت جناح النار ، مخسر كل
شيء ، وحاء الموت . الموت الذى يقتل الحياة بالخوف ، حتى قبل ان يجيء . لورد المسمى
الحياة لصاح بكل رجل . . لا تخف . . الخوف لا يمنع من الموت . . ولكنه يمنع من الحياة . .
ولستم يا اهل حارتنا احياء ، ولن تنجح لكم الحياة ، ما دمتم تخافون الموت . " (٢)

(١) اولاد حارتنا - ص ٥٣٣ - ٥٣٥

(٢) - - - - - ص ٥٤٦

وفي هذه المسيحة ، دعوة الى المقاومة ، الى الثورة الأبدية ، التي نادى بها نجيب محفوظ .
على لسان احمد شوكت ، في " الثلاثة " . " الواجب الانساني العام " ، هو الثورة الأبدية .
وما ذلك الا العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ، ممثلة في تاورنا نحو المثل الأعلى . (١)

وعلى ذلك ، تنتهي رواية " أولاد حارتنا " ، نهاية مؤلمة بحياة أفضل . اذ ان شبابنا
كثيرين انعموا بخنصر ، الذي عرّب بكتابة الأسرار ، ليتعلموا السحر منه ، استعدادا ليوم
الخلاص الموعود . لذلك " تحمل الناس البغي في جلد ، ولاذوا بالخبر ، واستمسكوا بالأمل .
وكانوا كلما اضر بهم العسف قالوا : لا بد لكالم من آخر ، ولليل من نهار . ولنرى في حارتنا
مصرع الطفيلان ، ومشرق النور والعجائب " . (٢)

لقد حلم نجيب محفوظ ، بمدينة فاضلة يحققها العلم . لكن العلم ، كما يقول احمد
عباس صالح ، " لم يحل المشكلة ، وما زال على الفكر ان يجد صيغة مثولة تنفق من انما هي
العلمية ، ومع الشرف الحضاري ، التي تعيشها المجتمعات الانسانية . ومن هنا ، كان السور
المشكلة الميتافيزيقية وحلولها المختلفة ، اما انكارها ، واما اثباتها ، واما تخليها . ولم تعد
المشكلة عملية عقلية ، بل حاجة اجتماعية ، لأن البحث عن العدل الاجتماعي ، صار يلتقي
بالبحث عن المشكلة الاجتماعية ، بل ان هذه المشكلة الأخيرة ، هي التي تدفع الى المشكلة
الأولى . واختلاط المشكلتين ، هو ازمة المجتمع البشري في هذا العصر .

وبحث نجيب محفوظ في المشكلة الميتافيزيقية ، مشروا عليه فرنسا ، بحكم الشرف

الاجتماعية والحضارية التي يجتازها العصر . (٣)

(١) السجيرة - ص ٣٩٢

(٢) أولاد حارتنا - ص ٥٥٢

(٣) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ (المشكلة الميتافيزيقية) - مجلة الكاتب ،
العدد ٥٩ ، سنة ١٩٦٦ - ص ٧٤

وأقصوصة " تحت المظلة " ، التي كتبها نجيب محفوظ ، بعد عشر سنوات من رواية " أولاد حارتنا " ، أتت تثبت أن العلم لم يتوصل بعد لحل المشكلة ، فهي هذه الأقصوصة تتلأسم كل القيم والمفاهيم الإنسانية ، عبر أحداث لا معقولة ، تحمل ألام الناس ينتظرون الباص ، تحت المظلة الواقية من المطر . وهذه هي الأحداث .

- رجل وامرأة ، يمارسان الحب فوق جثة رجل ، قتل أمامهم في حادث تصادم سيارتين .

- قوافل من البدو والخواجات ، تؤم المكان ، وتتصرف تصرفات طبيعية ، غير مبالية بالرقص أو الحب أو الموت أو المطر .

- عمال يشيدون قبرا ، ويضعون فيه جثث موتى الاضطدام ، ومعها العاشقين اللذين لم يكفيا عن ممارسة الحب ، فهما لا ينفصلان .

- رجل يلبس ثوب القضا ، يقف فوق القبر ، ويتلو نصا لا يسمع منه شيء .

- يظهر رجل ضخم ، يحسبونه مخرج سينما ، ويأمر الجميع ان يستمروا بلا خطأ ، والا اضطروا لاعادة كل شيء من البد .

- رأس آدمي يتدحرج امامهم ، والرجل يهتف برافو ، بينما هم تحت المظلة يصرخون نزعاً . والرجل يطلب من امرأة ورجل يمارسان الحب ، ان يغتبرا الوضع " حذار من الملل " .

- الرجل الذي حسبوه مخرجا ، اصبح ملاردا ، بعد ان دخل الشارع رجال ذوو هيئة رسميه . ثم اختفوا جميعا .

وحين يسأل الناس المنتظرون تحت المظلة ، الشاويش ، عما جرى ، يطلب بالمقاتبهم ، ويحقق معهم عن سبب اجتماعهم . وحين يجيبون ان احدا منهم لا يعرف الاخر ، يصرخ " كذبة

لم تعد تحدى " . ويسدد بنديته نحوهم ، ويطلق النار بسرعة واحكام ، فيقتلون واحدا في
اثر الآخر جثثا هامة ، الاجساد تحت المظلة ، والرؤوس على الطوار تحت المطر . (١)

وفي اعتقادنا ، ان نجيب محفوظ ، يرمز في هذه الاقصوصة ، الى التعقيد الذي يسود
العالم ، حتى اذا ما وقف احدهم يحاول فهمه ، سقط صريعا .

وهو يجمعه بين المتناقضات : البدو والخواجات ، الحب والموت ، الرقص وحفر القبور ،
الاوامر والمطاردة ، انما يحمل مشكلات العالم كلها . ثم انه يقتل من سألوا كيف ؟ ولماذا ؟ انما
يرمز الى ان الانسان ، سيظل يدفع حياته ثمنا للمعرفة .

وفي رأى غالي شكرى : " ان مدينة نجيب محفوظ في تحت المظلة هي مدينة جينيميه ، فوناما
ندام ، وحنونما عقل ، ومذابحها سلم . ولبنه امدينة وحان ، الوجه الانساني العام ، الذي
يقصد به العالم كله ، والوجه المحلي الخاص . ولكن العالم في رؤيا نجيب محفوظ ، لا يعني
الكون . ومأساة الانسان في رؤيا نجيب محفوظ ، لا تعني اخفاقه الاثلي في كنه سر الاسرار .
وانما عالم نجيب محفوظ هو عالمنا الواقعي المحدود بأقامة ، ينتهنا الدائم ، وبقوانين ينقضيها
القانون . " (٢)

ومن المسلم به ، ان الفن ، يستخلص مادته من ارضية اجتماعية ، يعبر احداثا ومشكلاتها .
وفي عصرنا ، لم يعد المجتمع هو تلك الرقعة من الارض ، التي يعيش الانسان عليها . صارت
المشكلة الانسانية العامة ، هي مشكلة كل مجتمع . وفي هذا يقول نجيب محفوظ ، " انني نفسي
المرحلة الاخيرة ، اتبع الواقعيه الجديدة ، وهذه لا تحتاج الى القا لمميزات الواقعيه التقليديه ،
التي يقصد بها ان تكون صورة من الحياة . . الواقعيه الجديدة تتجاوز التناقضات

(١) تحت المظلة - ص ٥ الى ١٦

(٢) شكرى ، غالي - نجيب محفوظ وأزمة الانتماء الى الثورة - مجلة مواقف - العدد ٥ ، سنة ١٩٦٩

والتشخيص الكامل ، وهذا ليس تطورا في الأسلوب . بل تغيرا في المضمون . الواقعيه التقليديه ،
أساسها الحياة . فأنت تصورهما ، وتبين مجراها ، وتستخرج منها اتجاهاتها ، وما قد تتضمنه
من رسالات . وتبدأ القصة فيها وتنتهي ، وهي تعتمد على الحياة ، والأحياء ، وملايساتهم ، بكل
تفاصيلها . أما في الواقعية الجديدة ، فالباعث على الكتابة ، أفكار وانفعالات معينه ، تتجه
الى الواقع ، لتجعله وسيلة للتعبير عنها . (١)

(١) خراط ، ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة - العدد ٦ ، سنة ١٩٦٣ - ص ٢٧

خاتمة

يعايش نجيب محفوظ ، الموت في قصصه ، كما يعايش الحياة . فالموت ، ظاهرة حياتية ، يمر بها كل انسان . وهو على المستوى الفردي ، أبشع مأساة يتصورها الخيال ، اذ انه لا يعني العدم وحسب ، وانما له ذبول ، وآثار نفسية ، وعاطفية ، واجتماعية ، واقتصادية ، تغرق ظلالها في المجتمع ، فتفعل فيه ، سلبا في أغلب الأحيان ، وإيجابا في بعض الأحيان . لكن الموت على المستوى العام - كما يراه الكاتب - ما هو الا " جزء من الحياة " مثل بندول الساعة . فكما يولد الانسان لغاية استمرار الحياة ، يموت للغاية ذاتها ، بل ربما لغاية ابعد من الاستمرار الرتيب . انه الاستمرار المتطور ، المتطلع الى مزيد من الحرية للانسان ، ومزيد من العدالة ، ومزيد من الكرامة .

وفي مرافقتنا لأعمال نجيب محفوظ منذ سنة ١٩٤٦ وحتى سنة ١٩٦٩ ، لاحظنا التطور في استخدام الكاتب للموت ، من حدث فردي ، اجتماعي مفجع ، الى حدث جماعي ، ميتافيزيقي ، مؤمل بحياة افضل ، عن طريق المعرفة المتمثلة بالعلم والفن .

كان الموت يحدث في أعماله الأولى بلا هدف ، لمجرد انه ظاهرة طبيعية حياتية ، تساعد الكاتب على تجسيد الأحداث بواقعية طبيعية . ولكن في أعماله اللاحقة ، وبدءا من " أولاد حارتنا " ، أصبح الموت يحدث لهدف . أصبح الانسان عنده ، يدفع حياته ، ثمنا لاجتلاء أسرار الكون ، وفرض مكنوناته . وأصبح البحث الدؤوب عن العدالة الكونية المطلقة ، والحرية الانسانية المطلقة ، الشغل الشاغل لأبطال " أولاد حارتنا " ، و " اللص والكلاب " ، و " الطريق " ، و " الشحاذ " ، وتلك الأقاصيص القصيرة في مجموعات " بيت سي " السمعة ، و " خمارة القط الأسود " ، و " تحت المظلة " .

المصادر

مؤلفات نجيب محفوظ :

١٩٦٦	-	دار مصر للطباعة	-	همس الجفون	١ -
١٩٦٥	-	" "	-	خان الخليلي	٢ -
١٩٦٥	-	" "	-	زقاق المدق	٣ -
١٩٦٦	-	" "	-	السَّراب	٤ -
١٩٦٧	-	" "	-	بداية ونهاية	٥ -
١٩٦٦	-	" "	-	بين القصرين	٦ -
١٩٦٦	-	" "	-	قصر الشوق	٧ -
١٩٦٧	-	" "	-	السَّحرة	٨ -
١٩٦٦	-	" "	-	اللبص والكلاب	٩ -
١٩٦٧	-	" "	-	السَّمان والخريف	١٠ -
١٩٦٥	-	" "	-	الطريق	١١ -
١٩٦٦	-	" "	-	بيت سيء السمعة	١٢ -
١٩٦٦	-	" "	-	الشَّحاذ	١٣ -
١٩٦٧	-	" "	-	ثرثرة فوق النيل	١٤ -
١٩٦٦	-	" "	-	ميرامار	١٥ -
١٩٦٧	-	دار الآداب ببيروت	-	أولاد حارتنا	١٦ -
١٩٦٨	-	دار مصر للطباعة	-	خمارة القط الأسود	١٧ -
١٩٦٨	-	" "	-	تحت المظلة	١٨ -

- ١ - شكرى ، غالى - المنتمي - الطبعة الأولى ١٩٦٤ - مكتبة الزنبارى
- ٢ - حافظ ، صبرى - الاتجاه الروائى عند نجيب محفوظ - مجلة الآداب ، ع ١١ - بيروت ١٩٦٣
- ٣ - خراط ، أد وار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة ، ع ٧٣ - القاهرة ١٩٦٣
- ٤ - خشب ، سامى - شخصيات من ادب المقاومة - مجلة الآداب ، ع ٦ - بيروت ١٩٦٨
- ٥ - الزيات ، لطيفة ، القبط
عبد القادر - عياد ، شكرى
- ندوة حول ثرثرة فوق النيل - مجلة الآداب ، ع ١٠ - بيروت ١٩٦٦
- ٦ - شكرى ، غالى - نجيب محفوظ وأزمة الأثماء الى الثورة - مجلة مواقف ، ع ٥ - بيروت ١٩٦٩
- ٧ - شوشه ، فاروق - مع الأدباء ، نجيب محفوظ - مجلة الآداب ، ع ٦ - بيروت ١٩٦٠
- ٨ - صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ - مجلة الكاتب ، ع ٥٦ - القاهرة ١٩٦٥
(مقدمة)
- ٩ - صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ - مجلة الكاتب ، ع ٥٧ - القاهرة ١٩٦٥
(الموقف التراجيدى)
- ١٠ - صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ - مجلة الكاتب ، ع ٥٩ - القاهرة ١٩٦٦
(المشكلة الميتافيزيقية)
- ١١ - صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ - مجلة الكاتب ، ع ٦١ - القاهرة ١٩٦٦
(المشكلة الميتافيزيقية)
- ١٢ - عبد الظاهر ، محمود - النهاية فى بداية ونهاية - مجلة الآداب ، ع ١١ - بيروت ١٩٦٠
- ١٣ - عطيه ، احمد محمد - نجيب محفوظ وطريق الثورة - مجلة الآداب ، ع ٥ - بيروت ١٩٦٧
- ١٤ - محفوظ ، نجيب - الأدب ، الحرية ، الثورة - مجلة مواقف ، ع ١ - بيروت ١٩٦٨
- ١٥ - محفوظ ، نجيب - ملاحظات على المشكلة - مجلة الكاتب ، ع ٦٠ - القاهرة ١٩٦٦
الميتافيزيقية

- III 16 - Durkheim, Emile - Suicide - A Free Press Paperback, 1966
- 17 - Hendin , Herbert - Suicide and Scandinavia - A Doubleday Anchor Book, 1965 .